

الطبعة
3
تامر عبده أمين
شيكولاتة بيضاء



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

شيكولاتة بيضاء

تامر عبده أمين

تصميم الغلاف

كريم آدم

المراجعة اللغوية

إيناس أيمن

الطبعة الثالثة فبراير ٢٠١٦

رقم الإيداع: 2015/23000

ISBN:978-977-770-031-3



المدير العام: يوسف ناصف

عمارات العرائس

المعادي الجديدة - القاهرة

+2 01146335098

info@elmasrypublishing.com

www.elmasrypublishing.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

تامر عبده أمين

شيكولاتة بيضاء

عن العيشة واللي عايشنها

دار المصري للنشر والتوزيع

إلى أبى (رحمه الله) الذى تعلمت منه
ومازلت .. أمى وأخى هيثم أدام الله وجودكما

(١)

عميل رقم 479

- عميل رقم ٤٧٧ شبّاك رقم ٣

تـردَّدت العبـارة السـابقة بصـوتٍ أُنثـوي آلي داخـل ذلـك الفـرع مـن فـروع شركـة الاتصـالات الشـهيرة.. تَقـدَّم أحـد العُمـلاء نحـو شـباك رقـم ٣ مُتخـذًا مكانـه أمـام موظّـف خدمـة العمـلاء.. في أحـد الأركان المنزويـة بصالـة الفـرع يجلـس (يـاسر) مُمسـكًا بورقـةٍ مُـدوَّن عليهـا رقـم دوره ٤٧٩ في توتـرٍ.

(يـاسر مصطفـى) شـاب في الـ ٣٥ مـن عمـره.. للوهلـة الأولى - وباسـتثناء ذوقـه الملحـوظ في اختيـار ملابسـه التي يبـدو عليهـا ارتفاع ثمنهـا - يبـدو لـك (يـاسر) شـابًا عاديًـا جـدًا لا تسـتطيع اسـتنباط أي فكـرة مُسـبقة عنـه مـن ملامـح وجهـه الطفوليـة.. يجـذب نظـرك إليـه الحركـة المُميـزة ليـده اليُـسرى الرفيعـة جـدًا، والتـي تبـدو كأنهـا جـزءًا منفصـلًا عـن باقـي أجـزاء جسـده وهـو يسـحبها إليـه سَـحبًا أثنـاء سـيره مُحـاولًا أن يفعـل ذلـك بشـكل اعتيـادي غـير مُلاحـظ.

على الرغم من إصابته منذ صغره وحتى الآن بمضاعفات مرض شلل الأطفال نتيجة إهمال والديه في تحصينه بالتطعيمات اللازمة، وبالرغم من تأثير هذا الشلل على شكله ومظهره العام مُتمثلًا في ضمور كُلّي ليده اليُسرى، إلّا أنَّ هذا لم يفقِده ثقته في نفسه ولو للحظةٍ واحدة.. حتى سُخرية أقرانه منه وقت دراسته، سواء في المدرسة أو الجامعة تحوّلت كلها وبمرور الوقت مع ذكائه إلى تقدير ومحبّة من الجميع.. كان مِثالًا للالتزام في الشركة التي يعمل بها مُحاسبًا، حتى وصل فيها لمنصب مُدير شئون الحسابات؛ لتميّزه في وقت قياسي!

(ياسر) لم يُفكّر في الارتباط من قبل أبدًا.. كان يعتقد أنَّ إعاقة يده ستقف دومًا حائلًا بينه وبين أي إنسانة يتقدّم لخطبتها.. توقّف عن هذا الهدف أو بمعنى أدق أجّله إلى أجلٍ غير مُسمى.. حتى رآها منذ أسبوع واحد فقط.. (تسنيم) موظّفة خِدمة العملاء بشركة الاتصالات.. تذكّرها وتذكّر كيف استطاعت ومن أول نظرة أن تخطف قلبه وتُجبره على إعادة حساباته.. وتذكّر سريعًا كيف كان لقاؤهما الأول.

بخطى سريعة أقرب إلى العَدْو، قطع هذا الطريق الذي يفصله عن المكان الذي أوقف فيه سيارته مُتجهًا إلى مدخل أحد فروع شركة الاتصالات المشترِك بها ووجهه يشتاط غضبًا.. كان قد اتخذ قراره بالانفصال عن الشركة نهائيًا بعدما وصلته آخر فاتورة منهم بمبلغ كبير جدًا، يرى من وجهة نظره أنّه مُبالغ فيه.. انتظر دوره.. جاء الدور ووقف أمامها.

- تحت أمرك يا فندم.

اخترقَت الجملة أُذنيه في رقةٍ مدعومة بابتسامةٍ هادئة مدروسة من الموظَّفة الجميلة ذات الطلّة الطفولية... اصطدمت عيناه بها وتبدَّلت ملامحه، وبدا كأنه لم يسمعها من الأساس.. تلاشت فورًا من داخله عقب عبارتها كل مشاعر الغضب والثورة، التي كادت تجتاحه، وتركزت عيناه في عينيها دون أن يُجيبها.. ارتبكت الفتاة وشعرت بالخجل؛ لعدم رده فتلفتت حولها في سرعةٍ وهي تُحاول رسم ابتسامة على وجهها مُكررة:

- تحت أمرك يا فندم!

انتبه من غَفوته المؤقتة مُحاولًا الخروج من الموقف.. أمسك بموبايله وقال مُتلعثمًا:

- متهيألي إن فيه مشكلة في جهازي أصله وقع مني في الميه امبارح.

ردَّت مُبتسمة:

- للأسف يا فندم إحنا مَعندناش قسم للصيانة، حضرتك ممكن توديه التوكيل بتاعه.

ابتسم لها في بساطةٍ وكأنه لم يسمع ردّها، ثم خرج من الفرع، وكان قد اتخذ قراره بالفعل.. وقال لنفسه:

- وليه لأ؟

- عميل رقم ٤٧٨ شباك رقم ١ .

قطعت العبارة السابقة حبل أفكاره، فتطلّع إلى الورقة الخاصة

وانتبه إلى أنه كاد يعتصرها بين أصابعه من انفعاله مع الأحداث المُتصاعدة داخل عقله، ثم واصل تذكُّر تفاصيل اللقاء الثاني.. نبتت في رأسه فكرةٌ مجنونة واستشار صديقه المُقرَّب (عصام) المُقيم في فرنسا عمّا اعتزم عليه.. لم يُضِع حينها وقتًا كثيرًا.. توجه في اليوم التالي مباشرةً إلى الفرع ووقف أمام (تسنيم) وقدَّم لها ملفًا يحتوي على كل تفاصيل حياته الشخصية والوظيفية مع كل ما يمكن أن تحتاج أسرتها أن تعرفه عنه، ومع الملف عرضًا بالارتباط ومُهلة أسبوع ليُعاوِد القدوم إلى الفرع وسماع ردَّها.. ابتسم عندما تذكَّر رد فعلها المَذهول، وعدم ردَّها عليه بحرف، وتذكَّر كيف أنه تركها وانصرف وملامح الدهشة تكاد تبتلعها.. وها هو الأسبوع قد انقضى وجاء لسماع الرد.

– عميل رقم ٤٧٩ شباك رقم ٣

قبل أن تكتمل العبارة كان يقف أمامها.. ارتبكت بمجرد رؤيته.. ابتسم وقال:

– أنا جيت في الميعاد.

قالت بصوتٍ خافت يُغالبه التوتر:

– أنا أسفة مش هينفع.

صدمته العِبارة السابقة، فقال في هدوء:

– أكيد طبعًا إنتي حرة، لكن ممكن أعرف السبب؟

صمتت لحظة، وبدت عليها علامات التردد، ثم اتجهت عيناها بنظرةٍ سريعة مُرتبِكة ليده اليُسرى.. فهِم ما ترمي إليه:

- عشان إيدي؟

استجمعت شجاعتها، ثم قالت في سرعة وبصوتٍ حاولت أن يكون مُنخفضًا أكثر:

- أنا من حقّي أرتبط بإنسان كامل.

رد في عصبية وبصوتٍ خرج رغمًا عنه مُرتفعًا:

- وأنا مش ناقصني حاجة.

عقب عبارته ساد الصمت المكان، ونظر أغلب الموجودون لهما.. اقترب أحد زملاء (تسنيم) منهما ناظرًا إلى (ياسر) وموجّهًا حديثه لها:

- فيه حاجة يا آنسة تسنيم؟

لم تُجب.. رمقها (ياسر) بنظرةٍ يملأها الحزن والعتاب، ثم أعطاها ظهره وترك المكان في خطواتٍ سريعة دون كلمة واحدة منه.. تأملته وهي تحاول أن تُبعد عينيها عن مُتابعته وانحدرت من عينيها دموع حارة، ثم تمتمت بصوتٍ خفيض لم يسمعه أحد:

- صدّقني غصب عني.. غصب عني.

تماسكت وتلفتت حولها، ثم أخرجت بضعة مناديل ورقية من حقيبتها ومسحت دموعها في سرعةٍ بيدها اليُمنى، وتحسست بيدها اليُسرى ذلك القائم المعدني (العُكاز) الذي تستند عليه أثناء سيرها، وألقت نظرةً حزينة على ساقها اليسرى المختفية والممددة بالكامل تحت المكتب في شبه خمول، أو شبه حياة.

(٢)

هتعدى

لم يستجِب الراكب لمحاولات سائق التاكسي الذي يُقلّه لفتح أحاديث جانبية معه كعادة أغلب سائقي التاكسي المشهورين بالفضول والثرثرة في أي أمر تضيع معه دقائق الرحلة القصيرة.. حافظ على ملامح وجهه الجامدة الضجرة؛ ليَسِد على السائق طريق أي حوار معه بلا جدوى أو طائل.. مع الصداع الذي كاد يعصف برأسه، كان يكفيه ما به من غم ونكد، وكأن هموم الدنيا كلها قد تجمعت وأُلقيت فوقه، فأكسبته عمرًا إضافيًا فوق عمره.. مرّت دقائق قليلة من الصمت، وفجأة عبرت ثلاث فتيات- لا يتعدّون العشرين عامًا- الطريقَ أمام السيارة بسرعة.. ضغط السائق بتلقائية على الفرامل محاولًا تفاديهنّ، وبالفعل نجح، ثم أخرج رأسه من النافذة صائحًا فيهنّ:

- مش تحاسبي يا كتكوتة منك ليها.

وجّه رأسه إلى الراكِب مُبتسمًا:

- مستعجلين على إيه دول بس، محدش هيوصل قبل معاده.

لم يُعقِّب الراكب وأجاب بالصمت.. حاول السائق احترام حالة الزبون الشارد، لكن في النهاية فضوله وطبعه غلباه ولم يصمد كثيرًا فخرجت منه رغمًا عنه:

- مَفيش حاجه مستاهلة والله يا باشا.

يلتفت الراكب إليه في دهشةٍ:

- نعم!

يُكمل السائق في بساطة وتلقائية:

- بقول لسيادتك خلّيها على الله وفُكك وسيبك من أي حاجة.

استقبل الراكب عبارته دون رد.. أدار السائق مؤشر الراديو لوضع التشغيل قائلًا:

- أشغّل لك حاجة تروَّقك؟.. أنا معايا الفِلاشه فيها حاجات من اللي....

- لأ.

قالها باقتضاب، فأغلق السائق الراديو، وتناول علبة السجائر من فوق التابلو، ومد يده إليه بواحدةٍ في هدوءٍ.

- خُد عفّر؟

يُشير الراكب بيده في ضجرٍ:

- مش عايز.. ولو سمحت من هنا لحد ما نوصل مش عايز أتكلم خالص تاني.. مفهوم؟

يتنبه السائق لأوّل مرّة إلى يد الراكب ويُلاحظ الإعاقة بها.. تفاجأ من لهجته الحادة لثوانٍ، ثُم لم يلبث أن قال بنبرةٍ صارمة:

- طب بص بقى يا بيه.. أنا اللي يركب معايا عربيتي يلتزم بقوانيني وأوّل قانون إنَّك تفرد وشك.

- أفندم!.. إنت بتتكلم معايا كده إزاي؟!

- أهو زي ما سمعت.

- نزلني هنا.

- لأ مش هتنزل.. وتصبر لما أخلّص كلامي الأول.

الطريقة العنيفة في حديث السائق جعلت الراكب يلتصق في مقعده مذعورًا.. فواصل الأول بصرامة وقوة:

- من ساعة ما ركبت معايا وشايفك مهموم وشايل طاجن ستك على نَفوخك وبحاول أنكُشك وأخفف عنك وإنت أبدًا.. في إيه مالك؟.. ما تنشف وتخلّيك راجل.. هتطلع إيه يعني أكبر مصيبة مِسودة عليك عيشتك.. دا إنت لسّه عيّل في أول عُمرك، وياما هتشوف، أمّال لمّا تكبر وتلف والدنيا تمرمط في أهلك هتقول إيه؟

- إنت تعرف أنا عندي إيه؟

- هيطلع إيه يعني؟.. مديرك زعقلك ولا خصملك يومين ولا بت بتحبها سابتك وراحت لغيرك ولا سقطت في مادة.. أهي تلاقيها حاجة خيانة من بتاعة عيال اليومين دول..

(يُشيع بيده) معرفش ومش عايز أعرف.. عندك هم؟!.. عندي مليون.. محدش خالي.. بتني عينيها اتصفّت من أسبوعين ومصاريف علاجها خلّتني مدفعتش قسط التاكسي الشهر ده.. بس ولا الهوا.. و الله ضاربها صارمة ويقول الحمد لله وضحكتي من الودن دي للودن دي.

يصمت لحظة كأنه يتذكر شيئًا ما ثم يستكمل:

- حتى الولية في البيت بتقول عليّا اتجننت وراكبني عفريت.

قالها ضاحكًا بصوتٍ عالٍ.. لحظات واكتست ملامحه فجأة بالجدّية مرّةً أخرى وقال:

- أنا مش معتوه ولا حلّوف.. بس كل ده مش فارق معايا بنكلة.. تسألني ليه؟

نظر الراكب إليه بتساؤل دون أن ينطق، فأكمل بنفس الجِدية مُلَوِّحًا بقبضة يده في قوة:

- عشان أنا قد أي حاجة ربنا يحطني فيها.. مهما حطني في أصعب من كده مليون مرّة، أنا قدّه وهعديه.. أصل بالعقل كده لو مكنتش قده مَكنش حطني فيه من أصله.. مش هو قال في كتابه (لا يُكلِف الله نفسًا إلّا وسعها)؟.. ما ترد عليّا قال ولا مَقالش؟

- قال.

- خلاص يبقى والله هتعدي.

أطلق الراكب زفرةً من أعماقه وغمغم بارتياح:

- عندك حق.

- قولّي نكتة.

- نكتة؟!

- ده تاني قانون من قوانين عربيتي.. الزبون اللي يحرقلي دمي لازم يقولّي نكتة.

يُغمغم الراكب بارتباك:

- مش فاكر حاجة والله.

- خلاص أقولك أنا المرّة دي.. بيقولك مرّة واحد قهوجي اشترى عربية طلّع كراسيها برّه

ألقاها وضحك من قلب+ه كما لم يضحك من قبل.. كانت الضحكة هي البداية؛ ليتبادل مع السائق النكات ويتردد صوت ضحكاتهما عاليًا.. أخرجه السائق من حالته.. نسي سبب ضيقه وتمنّى لو كان الطريق أطول من ذلك.. حتى لمّا غادر السيارة ووصل إلى منزله ظلّت تلك الكلمة ترن في أذنه بإلحاحٍ.

والله هتعدي.

(٣)

تيجوا ؟

كانت نية الفتيات الثلاث - اللاتي لم يتجاوزن العشرين عامًا قبل زيارتهم الأولى إلى ذلك المول الشهير - أن يكون يومًا لا يُنسى بمعنى الكلمة.

- بالعربي عايزين نخربها.

هكذا هتفت إحداهُنَّ وهُنَّ على الباب، فبعد إلحاح استمر لمدة شهر أو يزيد على الأهل للسماح لهُنَّ بالخروج دون رقيب، حصلنَّ أخيرًا على الموافقة لخوض تلك التجربة بمفردهِنَّ.. بالفعل كان اليوم يسير كما تمنينَّ لحظات انبساط ومرح تخللها انبهار بالبريق الذي يُحيط بهِنَّ من كل جانب.. لكن كالعادة لحظات السعادة لا تدوم طويلًا، وكعادتهنَّ كلما وقعنَّ في مشكلةٍ جديدة.. وقفنَّ في أحد زوايا الدور الأرضي في المول في مواجهة بعضهن على شكل دائرة.. اقتربن.. رؤوسهنَّ إلى أسفل شبه مُتلامسة، وأيديهنَّ على أكتاف بعضهنَّ ثم تهامسن:

- الفلوس طارت في إيه بس عايزة أفهم؟

- بالراحة وتعالوا نحسبها تاني.. إحنا نازلين وكل واحدة

مننا معاها ٣٠ جنيه.. يعني ٩٠ جبنا ٣ آيس كريم بـ ٣٠.

- وفشار بـ ٤٥.

- و ٣ بلالين بـ ١٥.

- أوبا!!!.. طب ما كده بخ.

إحداهن بإحباط:

- مَدخلناش الفيلم.

- ولا جبت المحفظة اللي أصلًا جايه عشان أشتريها.

- دا إحنا مكملناش ساعتين حتى.

- هنعيش ونموت فقرين.

- قلتلكم نصبر لحد ما يكون معانا مبلغ مُحترم كده على بعضه عشان مَتكسفش، انتم اللي استعجلتوا.

هتفت إحداهن باستنكار:

- إحنا برضه؟!

- هششششش.. فككوا بقى من الهري وخلّونا في المهم.. هنروح إزاي؟

- أنا فلّست وكنت مُعتمدة عليكم.

- وأنا كمان.

- يا حلاوة.

- وإنتِ؟

تُدخل يدها في جيبها.. تتحرك يدها داخل الجيب ثم تقف.. تتغير ملامحها.. تشير بعلامة النصر.. تُخرج يدها بعُملةٍ معدنية

واحدة فئة ١ جنيه:

- لقيت ده.

تضرب إحداهُن كفّيها ببعضهما وتهتف بسُخرية:

- خليهولك.

- هنعمل إيه بجنيه يا خيانة منك ليها.. دا إحنا عايزين على الأقل ٦ جنيه عشان نروّح.

- طب والحل؟

تغمز المُمسكة بالجنيه بعينها غمزة غامضة:

- نعيش.

نظرن إليها بتساؤل.. رفعت رأسها وأشارت بها نحو آلة اللِبان المُستدير أمامهنّ:

- ها.. تيجوا؟

نظرنَّ إلى بعضهنَّ.

- بس الجنيه هيجيب لبانة واحدة بس يا فِتكة.

هزّت المُمسكة بالجنيه كتفيها في لامبالاة:

- وإيه يعني؟.. نقسمها.

ثوانٍ وكنَّ يقفن أمام الآلة.. وضعت إحداهن الجنيه داخل فتحة العُملات.. راقبت أعينهنَّ بمنتهى اللهفة اللبانة الحمراء التي تدور داخل مسار حلزوني في طريقها إلى الخروج.. مددنَّ أيديهنَّ الرقيقة لاستقبال رمز انتصارهنَّ الوحيد في تلك الليلة.. أمسكت إحداهنَّ باللبانة قبل الاثنتين.

- بصوا بالراحة عشان مَنضحَّكش الناس علينا.. أنا هقسمها وهدّي كل واحدة منكم حِتتها.

- هتقسميها إزاي؟

- عادي بيَّقي.

- الله يقرفك لأ طبعًا.

- ما هي ناشفة ومش عارفة أعملها بإيدي.

- طب هاتي هجرب أنا.

- لأ.

- لا إنتي ولا هي أنا اللي هقسمها.

تصارعنَ في عناد طفولي على الإمساك باللبانة.. سقطت على الأرض وبسبب طبيعة أرضية المكان المَصقولة تدحرجت فوقها اللبانة.. صرخنَ وأخذنَ يجرين ورائها، غير عابئات بالناس المُندهشين حولهم.. وصلت اللبانة إلى السلم الكهربائي المتحرك واستقرت فوق إحدى درجاته.. هَدَأنَ من حركتهن، حتى لا يُلفتن النظر، وصعدنَ خلفها في درجةٍ تليها بعدة درجات.. وصل السلم إلى الدور الثاني.. تدحرجت اللبانة بعده قليلًا، حتى توقفت بجوار عامل نظافة المول الذي لا يراها.. تستعد إحداهنَّ لتنقض عليها.. في نفس اللحظة يُزيح العامل اللبانة بالمكنسة أثناء قيامه بعمله، دون أن يدري، فيُعطيها قوّة دفع إضافية تجعلها تُواصِل الحركة.. يواصلن الصُراخ والجري خلفها.. تُلقي بها الدفعة إلى داخل منطقة الألعاب.. سيدة تجلس على كُرسي مُتحرك تتابع ببصرها ابنتها الطفلة الصغيرة

تتأرجح فوق إحدى اللُّعَبات بجوارها.. ترى السيدة الثلاث فتيات يجرينَ نحوها في سرعةٍ، تُطلق شهقة، وتقفز فوق طِفلتها واللُّعبة.. اللبانة لا تزال تجري و هنَّ ما زلن ورائها.. جارسون أحد الكافيهات بالمول يحمل صينية عليها عِدة أكواب لمشروبات ساخنة يأتي في الناحية العكسية.. يُفاجأ بالفتيات يجرين باتجاهه وعلى وشك الاصطدام به، يتفادى الأولى بحركةٍ رشيقة، ثم يتجاوز الثانية بخفةٍ مُحافظًا بمعجزة على ما بيده، ينظر إليهما مَذهولًا بعد أن تجاوزاه هاتفًا:

- يا ولاد المجانين!

لا يتنبه إلى الثالثة التي تصطدم به من الخلف فيسقط ومعه كل حمله.. تتباطأ اللبانة حتى تصطدم بقدم طفل صغير لا يتعدّى ٣ سنوات يقف مُمسكًا بيد والدته.. تقف اللبانة.. يتنبه الطفل.. يميل إلى الأسفل يلتقطها.. تتوقف الفتيات الثلاث ويُتابعن الموقف من بعيد وهنَّ يلهثن.. ينظر إليهنَّ الطفل في براءةٍ غير مُستوعِب لإشاراتهنَّ من بعيد أن يعطيهنَّ إيّاها.. يضعها في فمه بسرعة.. يجلسن على الأرض من الصدمة.. تبادلن النظرات وعلى وجوههنَّ خيبة الأمل.. لحظات ثم انفجرن في الضحك.. صحيح أنهنَّ خسرن آخر ما يملكن، لكنهنَّ حَظين في المقابل بواحدة من أكثر اللحظات إثارة في حياتهنَّ.

(٤)

اتنين برتقال

يتجه (أيمن) الجارسون عائدًا إلى الكافية الذي يعمل به في المول بخطوات مُتثاقلة نوعًا ما بسبب سقوطه منذ قليل.. وجهه يبدو عليه الضيق.. ملابسه عليها آثار بقع مُتعددة.. حاملًا صينية فوقها بقايا أكواب مُحطّمة فيستقبله زميله مُندهشًا:

- إيه ده!.. مين اللي دهولك ومرمطك كده؟!

يُشير وراءه إشارة مُبهمة ويُجيب بغضب:

- شويّة بنات مجانين كانوا بيجروا هناك.. عالم ولاد ستين....

يُقاطعه ضاحكًا:

- بس بس.. تعالى تعالى لما أنضّفك.

يُمسك منه الصينية ثم يضعها فوق مِنضدة جانبية ويتناول قِطعة قماش صغيرة ويمسح له فوق البُقع.. يواصل زميله حديثه قائلًا باهتمام:

- إنتَ النهارده مخك مش فيك.. لسّه برضه موبايلها

مقفــول؟

- أستنى فكرتني.

يقولها أيمن ثم يُخرج تليفونه من جيبه ويُحاول الاتصال برقم ما، ثم يسمع الرسالة الصوتية فيهز رأسه بضيق قائلًا:

- مثنيل مقفول برضه.

ينتهي زميله من مُهمته ثم يرد عليه:

- واجع دماغك على الفاضي.. يا ابني اتقل ومَتبقاش خِرّع.

يقول أيمن باستنكار:

- مع دينا!.. أنا وهي مَفيش بينا الكلام الأهبل بتاعكم ده.

- مش بتقول قافشة منك ومش راضية ترد عليك من الصبح!

- أيوه صح بس لو سمعتني هتفهم.

بنفاذ صبر:

- ما هي مش معبّراك أهي يا عم.

يزفر أيمن وهو يحاول الاتصال مرّة ثانية فيلقى نفس النتيجة ويرد:

- مسألة وقت مش أكتر يا سيدي ما تقلقنيش بقى

يكتم زميله ضحكته ويقول:

- وبعدين رايح تحبّلي واحدة أبوها بطل مصارعة زمان؟!

- آآآه.. اسكت يا أخي دا أنا شايل هم اليوم اللي هروح أتقدم فيه.

- ده بس!.. يا معلم إنتَ هتحسبها مليون مرّة قبل ما تزعلها.. ده هيعلقك.

ينتبه أيمن لجملة صديقه السابقة ويُفكر فيها لحظة ثم يهتف بقلق:

- إيه ده تصدق صح!

يشيح زميله بيده قائلًا:

- إنتَ حر.

يهم بالانصراف لكنه ينظر إلى نقطة ما خلفه.. يبتسم.. يُشير برأسه إلى ما وراء أيمن هامسًا:

- بُص مين هناك.. جُم وانتم برّه من شوية قبل ما تتدهول على عينك.

ينظر أيمن خلفه ناحية الصالة الرئيسية للمكان ويرى شابًا وفتاة يجلسان في أحد أركان الكافية الهادئة.. تتبدل ملامحه ويبتسم قائلًا:

- يا أخي أنا بنبسط كل ما بشوف الاتنين دول.

- روح شوف هيشربوا إيه عشان بقالهم كتير.

يرد بثقة:

- بدون ما أسأل أنا حافظهم.. جهِّز اتنين برتقال فريش

ساقع.

يُبلغ زميله الأوردر للشيف عن طريق شباك صغير بجواره ثم يسأل:

- همّا ما بيغيروش طلبهم خالص؟

- ولا مرّة.. بقالهم سنة وشوية أهو ولا مرّة غيروه.

- غريبة!

ينظر إليهم أيمن بإعجاب مشدوهًا ويقول لزميله:

- شايف الحب اللي طالل من عيونهم.. شايف بتبصله إزاى.. حاسس بالكلام اللي بيتقال في سكوتهم.. أوعدنا يا رب.

- صباح الأفورة.

يتجاهل رد زميله ويُحاول الاتصال مرّة ثالثة ويتجهم وجهه فينظر إلى أعلى ويهتف:

- ربنا يهديكي يا دينا يا بنت أم دينا.

يخرج زميل ثالث لهما ويُناول صينية عليها الكوبين إلى أيمن.. يحملها ويتجه بها نحو مِنضدة الشاب والفتاة بمُنتهى الحماس.. مُجرد رؤيته لهما كانت تبثُّ في روحه شيئًا من السعادة الغير مسببة وتُجدد طاقة الحب بداخله.. ربما لأنه وجد فيهما شبهًا من قصته مع دينا.. ربما لأنهما حافظا على نفس درجة الحب والهيام التي يراها في عيونهما لمدة طويلة منذ أن اختارا هذا المكان ليكون الشاهد الرسمي على قصتهما.. لا يدري.. وصل إليهما.. لاحظ

أنهما لازالا صامتين.. تعجَّب فتلك ليست عادتهما.. ابتسم تحيةً للشاب لكنه كان سارحًا فلم يتتبه. نفس الأمر بالنسبة للفتاة!.. وضع ما يحمله أمامهما في صمتٍ ثم انصرف.. بدوا مُختلفين له هذه المرّة كثيرًا.. أعطاهما ظهره وعاد مرّة أخرى بجوار زميله.. انشغل للحظات بعدها في متابعة زبون أو اثنين أخريين حتى أشار له زميله إلى مكان الشاب والفتاة صائحًا:

- إيه ده شوف كده.

نظر بسرعة فوجد الفتاة تقف وهي تبكي ثم تُلقي شيئًا ما بيدها على الطاولة وتنصرف شِبه راكضة.. يُنادي عليها الشاب لكنها تواصل الانصراف.. يهتف أيمن غير مصدقًا:

- إيه ده.. شكلهم اتخانقوا.

زميله بسُخرية:

- ما أنت نقّيت فيها.

يُردد أيمن بأسى بالغ:

- ليه بس.. ليه!

- وشكلهم عاقلين كده مش عيال سيس.

- بس هما كان فيهم حاجة متغيرة عن كل مرّة

- وجايين يتخانقوا النهاردة!.. في الفلانتين.

يُفاجأ أيمن من كلام زميله فيُمسكه من ذراعه فجأةً مصعوقًا:

- إيه ده الفلانتين النهاردة.. إنتَ متأكد؟

- أيوه يا عم.. فيه إيه؟

يخلع البوبيون من رقبته ويهم بتغيير ملابس العمل هاتفًا:

- مش تقول من بدري.

- استنى رايح فين؟

- هروح لـ دينا البيت.

- ليه؟

- هصالحها.. بكره الفلانتين مينفعش نفضل كده.

- هتخش إزاى وهتقولهم إيه عندها؟

- مَفكرتش بس هتصرف.. تيجى زي ما تيجى بقى.

- والشغل؟

مشيرًا إلى ساعته:

- فاضل ساعة على الشِفت بتاعى.. غطِّينى فيها بقى خلّيك جدع.

ضاربًا كفًا بكف في ذهول:

- أنا عارف دي صحوبية مش جاي ولا هيجي من وراها إلّا الهَم والقرف.. مش كفاية مستحملك في البيت!.. هشيل وراك هناك وهنا!

كان أيمن قد انتهى من ارتداء ملابسه فهتف بمرحٍ وهو

يهم بالخروج:

- أيون وتعمل حسابك على كده طول ما إحنا قاعدين مع بعض في شقة واحدة.

- هات العيش معاك وانتَ جاي.. والله ما هدخلك البيت لو ما جبت.

أرسل له أيمن قبلة في الهواء هاتفًا:

- حبيبي.

يقولها ثم يغادر المكان.. أوّل ما كان يشغل باله هو أن تكون دينا بخير فعدم ردّها عليه ثم إغلاقها للهاتف أورثه شعورًا قلقًا عليها.. أمّا طريقة دخوله إلى منزلها فلم تكن تشغل باله على الإطلاق..

(٥)
حبل دايب

للمرة الخامسة على التوالي ظهر رقمها على الشاشة مُعاودًا الاتصال بإلحاح.. قبل لقائهما بعدة ساعات استيقظ عمرو على الاتصالات المُتتالية من هبة.. ظهر رقمها ولم يظهر اسمها على شاشة هاتفه المحمول.. حذف اسمها منذ أكثر من شهر عقب آخر وأكبر خِلاف بينهما إلّا إنه لا يزال يتذكر رقمها جيدًا ربما أكثر من رقمه.. جلس على حافة سريره وأمسك بالهاتف.. تردد للحظةٍ لكنه حسم تردده مع الاتصال السادس وقرر الرَّد.. جاءه صوتها على الطرف الآخر بنبرة عتاب طفوليّة:

- إيه يا ابنى سنة عشان ترد؟

- إزيك يا هبة.

- وحشتني ومن غير مناقشة عايزة أقابلك النهاردة.

ظل صامتًا لبضع ثوانٍ قبل أن يُجيب في هدوء:

- فيه حاجة؟

لم تشعر بالبرودة في حروفه وأجابت:

- حاجة واحدة بس؟!.. حاجات يا أستاذ.. هستناك الساعة ٥ في كارلوس كافية.. متتأخرش عشان عندي مُفاجأة ليك وكمان عايزة أصالحك.

ابتسم ابتسامةً شاحبة لم ترها:

- إن شاء الله.

على نفس المنضدة المُفضّلة لهما وفي نفس المكان الذي طالما شهد معظم لقاءاتهما جلسا.. احتضنت هبة يده بكفيها ثم بدأت حديثًا تتقاطر منه روح مُحِبة مُبهِجة:

- شوف يا أستاذ بدون مُقدمات كده.. أولًا إنتَ مش لسّه هتعرفني النهارده دا أنا تربيتك.. ثانيًا أنا فكرت في الكلام اللي إنتَ قولته واقتنعت بيه وموافقة وأسفة كمان يا سيدي لو كنت ضايقتك بكلامي بس إنتَ عارف إن أنا.....

تصمُت دقيقة كاملة وكأنها تُلملِم شتات نفسها.. سحبت يدها في خجل.. قالت في همس:

- بحبك.

كانت تعتقد وهي تهمس بها وقد اكتست ملامحها بلون وردي إنها اجتازت المُستحيل مُتجسدًا في أربعة أحرف ولم يدُر في خلدها أنها كمن أمسك العالم كله بكامل تفاصيله وألقاه فوق أكتافه فجأة.. قالتها وابتسمت في خجل وهي تنظر إليه ولكنها صُدِمت من نظراته المُضطربة الخاوية والتي لا تُعبّر نهائيًا عن رد

الفعـل الـذي توقعتـه.

نظـر كلاهمـا إلى عـين الآخـر مُحـاولًا استشـفاف مـا بداخلـه كـما اعتـادا.. دار بـين عيونهـما حـوار بـلا صـوت.. اسـترجعا كل شيء مـن البدايـة وحتـى اللحظـة.. جمعتهـما الحيـاة بـما هـو أكثر مـن مُجـرّد علاقة حُـب.. يـوم مـيلاد واحـد ، مدرسـة واحـدة ، فصـل دراسي واحـد ، وكُلّيـة واحـدة.. علاقـة دافئـة بـين الأسرتـين كان سـببًا مبـاشرًا فيهـا مواجهـة منزليهـما كلاهمـا للآخـر.. يـا لقـرب مـا اجتمعـا عليـه ويـا لبعـد مـا افترقـا إليـه.. لا يـدري أيًـا منهـما متـى بـدأت نهايـة قصتهـما تحديـدًا لكنهـا ككل شيء بـدأت بخـلاف بسـيط لم يلبـث أن تعاظـم نتيجـة إصرار كل منهـما وتمسُّـكه برأيـه.. عمـرو كشـخصية طابعهـا السرعـة يـرى أنـه وهبـة كالكِتـاب المفتـوح بالنسـبة لبعضهـما و دومًـا كان يرغـب في التقـدُّم لخطبتهـا وتكليـل قصـة حبهـما في أسرع وقـت خصوصًـا أنـه سـيبدأ تفعيـل ارتباطـه بعقـد عمـل مُغـري في إحـدى دول الخليـج بعـد خمسـة أشـهر ويُريـد أن يُسـافر ومعـه زوجتـه وزاد تمسُّـكه بمقترحـه هـذا أكثـر بعـد موافقـة الأسرتـين.. عـلى النقيـض هبـة شـخصية مُتمهلـة لأقـصى حـد تـرى أن اتخـاذ هـذه الخطـوة يُلزمه المزيـد مـن الوقـت وأنهـا يجـب أن تأخـذ فرصتهـا كاملـة هـي أيضـا حتـى تُحـدِد رغبتهـا ولم تُجـدي معهـا محـاولات والدهـا لإقناعهـا ولا ترهيـب والدتهـا لهـا عندمـا صدمتهـا بقولهـا:

– إنتـي بتتلككـي وخايفـة مـن الارتبـاط يـا هبـة.. أنـا أمـك وأكـتر واحـدة أفهمـك.. بـس بطريقتـك دي عمـرك مـا هتتجـوزي لا عمـرو ولا غـيره.

وبالرغم من ذلك ظل كلاهما عند رأيه حتى وصلا لمرحلةٍ شعرا معها أن نِقاط التلاقي بينهما تنكمش يومًا بعد يوم ومن ثم كانا قد أخذا قرارًا بالابتعاد بعد آخر مرّة جدد عمرو فيها عرضه بالتقدم لخطوبة هبة و رفضها له كالعادة.

- عمرو أنا بكلمك!

قالتها وأخرجت نفسها وهو من حالة السكون التي سيطرت عليها.. انتبه عمرو.. بدا وكأنه يتقي ويزن كل حرف من إجابته وقال:

- اتأخرتي زي كل مرّة.. حتى المرّة الوحيدة اللي جيتي تأخدي قرار صح أخدتيه متأخر.

نظرت إليه مُتسائلة، فأكمل:

- أنا مسافر بعد أسبوع.

ترقرقت عيناها بالدموع غير مُصدِّقة.. يقترب منهما الجارسون واضعًا أكواب المشروبات أمامهما ثم يبتعد.. يواصل عمرو مُتعمدًا عدم النظر لعينيها:

- مَتفتكريش إن القرار ده كان سهل عليّا.. دي عِشرة.. عُمرنا كله تقريبًا.

هز رأسه في ألم ثم واصل:

- بس أنا مَكنتش أقدر استنا أكتر من كده.. أنا بكلمك في موضوع ارتباطنا من زمان وكنتي بتهربي.. بتصالحي وتزعلي

وقت ما تجي. تقربي وتبعدي وقت ما تجي. أنا دايمًا اللي أصالح أنا دايمًا اللي أصبر. أستنى!.. أسكت!.. أبدًا!.. إيه ولحد إمتى؟

يركز عينيه في عينيها ويواصل بمرارة:

- أنا عمري ما كنت ضعيف غير قدامك بس لإمتى؟.. هبة إنتي عندك مشكلة كبيرة اسمها التأخير حتى لو التأخير ده بيجي على حساب مشاعرك ومشاعر اللي قدامك.. (يبتسم بسُخريةٍ مؤلمة) دا إنتي حتى ميعادنا ده اللي إنتي محدداه جاية متأخرة عليه.. أنا متأكد إننا هنفضل إخوات زي ما إنتي قولتيلي آخر مرّة أو على الأقل أصدقاء.. يا رب تكوني فهمتي كلامي.

ترد بصوتٍ مُختنِق من الدموع:

- الحاجة الوحيدة اللي فهمتها قد إيه إني كنت بني آدمة زبالة.

- أكيد مش ده اللي أقصده!

أوقفته عن الاستمرار في حديثه بإشارةٍ من يدها وقالت مُحاولةً الابتسام:

- مَتضحكش على نفسك أو عليّا يا عمرو.. الصداقة ممكن تبقى حُب بس مفيش حُب بيرجع يبقى صداقة.

- الحُب اللي بجد بياخد من الطرفين وبيدي الطرفين.. زي حبل لازم يكون مشدود من ناحيتين وبنفس القوة.. لو طرف

حَس إنه شادد أكتر من التاني الصح إنه يسيب فورًا عشان هيتكفي على ضهره.

- وسيبت؟

- كان لازم عشان إحنا الاتنين مَنوقَعش يا هبة.

تصمت لحظة ثم تقول:

- ربنا يسعدك ويوفقك في قرارك.. بس عايزة أقولك على حاجة.. أنا جايز يكون خجلي أو تأخيري زي ما إنتَ بتسميه مشكلة عندي بس إنتَ كمان عندك مشكلة. إنتَ معرفتش تحتويني.. أي حاجة غلط فيّا إنتَ كنت جزء منها.. سكوتك خلّاك شريك في أي حاجة محاولتش تصّلحها فيّا وجاي تلومني عليها النهاردة!

تحاول السيطرة على دموعها وتُخرج بأيدي مُرتعشة من حقيبتها علبة صغيرة مربعة ومُغلفة وتضعها على المِنضدة أمامه مواصِلةً:

- وعلى فكرة أنا اتأخرت عليك النهارده عشان كنت بشتريلك دي.. النهارده عيد ميلادك.

همَّ عمرو بقول شيء ما لكنها أوقفته مرّة ثانية بإشارة من يدها وواصلت وهي تنهض:

- إنت كسرتني.

قالتها و خرجت في خطوات أشبه بالعدو وهي تضع يدها

على وجهها مُحاولةً كتم فيض الدموع الذي انفجر عليه وناداها عمرو لكنها لم تُجِبه ولم تنظر وراءها أبدًا.

منذ ذلك الحين أصبحت هبة مختلفة تمامًا.. أثقلتها مرارة التجربة وحوَّلتها لإنسانة أخرى.. حققت نجاحًا في عملها.. زادت مساحة تعاملها بعقلها وتلاشى دور قلبها في حياتها نهائيًا.. أصبحت أكثر نُضجًا وغِلظةً في التعامل مع الآخرين. لكنها بالتأكيد أصبحت أسرع بكثير في اتخاذ قراراتها - أو هكذا أعتقدت- أسرع للدرجة التي جعلتها تتأخر في نسيان قصتها مع عمرو.. حتى الآن!

(٦)

فلانتين

- مش فاهم الناس جرالها إيه.. الرحمة من عندك يا رب.

-مالك يا أبو دينا فيه إيه؟

- الدنيا مَبقاش فيها أمان.. كل يوم الصبح الواحد يصطبح بشوية حوادث وجرايم تخلّي الدم يغلي في عروقه.

- ما إحنا خدنا على كده هي عادة بلدنا ولا هنشتريها.. إيه الجديد النهارده يا حاج؟

- بيقولك عيلة في مصر الجديدة دخل عليهم المجرمون الشقة بحِجّة إنهم مندوبون من اللي بيلفّوا على الشقق وبيبعوا أجهزة ودبحوهم كلهم وسرقوا الشقة.. كل ده في ربع ساعة بس ولا من شاف ولا من دِري ومَفيش حد من الجيران حس بحاجة.

- وإيه يعنى يا حاج.. ما إحنا بقينا نسمع عن الحاجات دي كل يوم عادي.. دا اليوم اللي بيعدي من غير ما اسمع عن حوادث بالشكل ده بقول ده يوم مش طبيعي.

- لأ بس مش كده.. من ١٠ سنين مَكنش فيه رُبع الكلام

ده.. الجرايم دي دَخيلة علينا بقالها مُدة والغريب إنها مش شبهنا وكل مادا عمّالة تزيد.. ولا إنتي ايه رأيك يا دينا؟

يقولها وهو ينظر إلى ابنته الجالسة غير مُنتبهة على مقربةٍ منهما وبيدها إحدى المجلات تُقلّبها بين يديها بشكل روتيني وتتدلى من أذنيها سمّاعات الـ ipod.. تميل الزوجة على أذن زوجها وتقول:

- مش هتسمعك بقالها يومين على كده وحالها مش عاجبني.

- فيه حاجة حصلت معاها في الشغل؟

تهز الأم كتفيها في إشارة لعدم عِلمها ثم تقوم وتتحرك للداخل فيقترب الوالد من ابنته.. تنتبه لوجوده.. تخلع السمّاعات وتعتدل في جلستها:

- اللي واخد عقلك.

تبتسم وترد:

- إيه يا بابا؟

- مالك يا حبيبتى؟

- مالي يا بابا!

- قاعدة سرحانة ومش بتخرجي ليه.. مفيش شغل النهاردة؟

- أخدت إجازة أسبوع وقاعدلكم أهو.. لمّا بخرج بتقولّي مش بتقعدي معايا وأهو لمّا أقعدت بتقولّي مش بتخرجي!

- أنا عن نفسي عايز بنتي حبيبتي تكون جنبي علطول.. بس بنتي اللي أعرفها مش واحدة شبهها.. إنتي فيه حاجة

مضايقاكـي؟

تُحاول الابتسام:

- لا أبـدًا مفيـش.. وهـو أنـا لـو فيـه حاجـة هخبـي برضُـه عليـك إنتَ عــارف.

- أكيد؟

تهز رأسها في بساطة:

- أكيد.

ترتفـع أصـوات طرقـات سريعـة عـلى البـاب فتقـوم دينـا وتتجه ناحيـة البـاب.. تفتـح البـاب وتجـد أمامهـا حبيبهـا أيمـن وبيـده كرتونـة لجهـاز كهربائـى ويقـف مُتوتـرًا.. رد فعـل مَذهـول عـلى وجـه دينـا وتنتقـل بنظراتهـا بـين حسـام وداخـل المنـزل وتهمـس في رعـب:

- أيمن!.. أنت إيه اللي جابك هنا؟

- إنتـي اللـي فـين يـا دينـا.. قافلـة تليفوناتـك كلهـا ومـش بتنـزلي مـن البيـت.. فيـه إيـه؟

تُجيب بلهجةٍ غاضبة هامسةً وهى تجزّ على أسنانها:

- إنــتَ هتسـتعبط ولّا قلـت لنفسـك أخـش عليهـا بكلمتـين وأخطفهـا بيهـم؟

- يـا مجنونـة والله العظيـم دي زبونـة عاديـة مـا أعرفهـاش ولا فيـه أي حاجـة بينـي وبينهـا.

- آه والمطلـوب منـي أكـذِّب اللـي شـوفته بعينيـا دول وأصدقـك

لأنك الملاك الطاهر اللي لازم يتصدق دايمًا.

يتلفت حوله في قلقٍ ويهمس قائلًا:

- بُصي وقفتنا كده مش هتنفع.. ادخلي البسي وأنا هستناكي تحت ونتكلم براحتنا وهفهمك كل حاجة

تتردد.. فيكرر:

- يالّا بقى مَيقاش دمك تقيل وقلبك اسود ده النهارده الفلانتين.

تنتبه لهيئته وتقول بدهشة:

- وبعدين إيه اللي إنتَ لابسه وعامله في منظرك ده!

تسمع صوت والدها الذي يقترب من الباب:

- مين يا دينا؟

تتلعثم وتقول بتوترٍ بالغ:

- ده.. ده.. ده

يصل والدها في تلك اللحظة إلى الباب وينظر بصرامة إلى أيمن ثم يقول لابنته:

- ادخلي إنتي جوّه دلوقتي.

تدخل دينا مسرعةً إلى الداخل ويزيح أيمن والدها ويدخل إلى داخل الشقة حاملًا الكرتونة التي بيده ويبحث عن شيءٍ ما في مدخل الشقة حتى يجد فازة بها ورد فيخرج الورد منها ويسكب ما بها من طين على الارض فوق السجادة ويُخرج من الكرتونة مِكنسة كهربائية ويُوصِل الفيشة بالكهرباء.. رد فعل

مصدوم على وجه والد دينا أثناء قيام أيمن بذلك.. يصيح الأخير في قوة:

- طبعًا حضرتك مستغرب وبتقول إيه اللي بيحصل ده؟.. بص يا بيه ده لا شُغل الصين ولا تايوان إحنا معانا مكنسة ياباني أصلي تشيل أي تراب أي عفار وتنضف أي حاجة من على أي سجادة وبسعر مُستحيل تتخيله.. جرّب حضرتك ومش هتندم ولو مَنضفتش السجادة حالًا بشرفي أنا مُستعد أبلع كل الطين اللي على الأرض ده وأكله قُدّام حضرتك.

يبتسم أيمن ويُناول والد دينا المكنسة في ثقةٍ حتى يُجربها.. تبدو الصرامة على وجه والدها ثم يُغلق باب الشقة ويُشمّر أكمامه وينظر بريبةٍ لـ أيمن قائلًا:

- وعلى كده بقى بعد ما تاكل الطين تحب تبلّع بحاجة ساقعة ولا عصير؟

يلمح أيمن بطرف عينه صورة أبيض وأسود كبيرة مُعلّقة على الحائط لوالد دينا بملابس المصارعة تبرز عضلاته من وسطها فيبلع ريقه بصعوبةٍ ويسأل:

- مش فاهم يا باشا.

يمسكه من ياقته ويهم بضربه ناظرًا إليه بصرامة:

- أصل الكهربا قاطعة.

(٧)

غُربة

ينـزل ببـطء بمسـاعدة أحـد الـرُّكاب مـن السـيارة السـوزوكي الأجـرة عنـد آخـر الخـط بمدخـل الحـي الثـاني بمدينـة ٦ أكتوبـر.. هيئتـه كانـت توحـي أنـه خـارج لتـوه مـن معركـةٍ لم يكـن أبـدًا الطـرف الرابـح فيهـا.. يختفـي وجهـه خلـف كومـة مـن الضـمادات الطبيـة الملزوقـة بشـكل عشـوائي وكَدمـة زرقـاء تحـت عينـه اليُمنـى المُنتفخـة ورباـط ضـاغـط يلـف ذراعـه اليُـسرى كلهـا.. يسـير عـلى قدمـه اليُمنـى وبالـكاد تلمـس اليُـسرى الأرض مـن شِـدة الألم فيهـا.. أحـد التكاتِـك يمـر بجـواره فيشـير لـه ويُصيـح بصـوت عـالٍ:

- عند شركة المية؟

يُجيبه سائق التوك توك بسرعة دون أن يتوقَّف:

- اتمشَّاها يا بيه محدش هيدخلك جوّه؛ الشارع مدغدغ.

يقول لنفسه:

- هـي الشـوارع بـس الـلي متكسـرة!.. مـا أنـا لـو أقـدر أمشـيها كنـت مشـيتها يـا أضبـش.

يتأمل المسافة المُتبقية.. ينظر إلى السماء قائلًا:

- القوّة من عندك يارب.

يهم بالسير ولكنه يتذكر تحذير زميله له في الكافية قبل ساعتين تقريبًا ويرن صوته في أذنه:

- والله ما هدخلك البيت لو جبت العيش معاك.

يتوقف وتبدو الحسرة على وجهه ويتلفّت حوله ثم يُحدِّث نفسه:

- الله يحرقك يا سامح إنتَ ودينا وأبوها في يوم واحد.. أجيب منين عيش أنا بمنظري ده!

سار بصعوبةٍ بالغة مُنهكًا تحت أشعة الشمس باحثًا عن مُبتغاه فوجد نفسه فجأة داخل أحد الشوارع الجانبية في طريقه إلى الميدان الرئيسي الفرصة الأخيرة ليجد طلبه.. سأل المارة فدلّوه.. رآها واقفة تبيع الخُبز الموضوع أمامها على مِنضدة بسيطة في قلب الشارع وحولها ما لا يقل عن أربعة زبائن.. استوقفته طلّتها.. سيدة في أواخر العشرينات من عمرها.. ملامحها شاميّة جميلة.. شعرها أصفر مُصففًا بعناية وتملك عينين زرقاوين في نقاء السماء الصافية.. تُشكل ملامحها مع ملابسها البسيطة الأنيقة صورة شِبه متكاملة لكتالوج الجمال الهادىء لِما يجب أن تكون عليه كل أنثى.. قادته ساقاه إليها.. وقف أمامها مشدوهًا.. في نفس اللحظة مر بجوارها رجل كبير في السن فوق دراجته ألقى عليها تحية سريعة ودودة:

- إزيك يا دكتورة؟

- منيحة يا حاج نشكر الله.

قالتها وتلاقت عيناها مع الشاب الذي يُراقبها.. تركت ما بيدها وجرت عليه في قلقٍ حقيقي وقالت وهي تنظر إلى إصاباته المُتعددة:

- سلامتك.. إنتَ بخير؟

تلفَّت حوله:

- مين.. أنا!

هزّت رأسها بالإيجاب وهى مُبتسمة:

- آي.

بادلها الابتسامة وقال في مرح:

- آه آه أنا زي القرد أهو

- معافى يا رب

قالتها ثم عادت لتجيب طلبات زبائنها.. جاء دوره فأقترب منها وقال في بساطةٍ مُبتسمًا ومُشيرًا على الكيس:

- أنا هاخد ده.

تناوله إيّاه وتقول في ارتباك:

- أسفة كتير إنو الخبز خالص.

- لا لا طبعًا ولا يهمك.. ده كفاية قوي إحنا كلنا اتنين أصلًا.

ناولها قيمة الكيس وهمَّ بالانصراف لكنه تردد وسألها بفضول ظهر في صوته:

- هو حضرتك دكتورة؟ أصلي سمعت الأستاذ اللي عدّى

بالعجلة ده بيناديكي بيها.

كأنها كانت تنتظر السؤال حتى تتحدث.. عرف عنها كل شيء في لحظات.. اسمها (رندة). سورية معها دكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة دمشق.. منذ أقل من عامين جاءت إلى مصر مثل آلاف وربما مئات الآلاف من الإخوة السوريين.. في البداية اضطرت أن تبيع الخبز بشكل كانت تأمل أن يكون مؤقتًا لكنه استمر حتى اللحظة.. سألها مُندهشًا:

- ليه مَشوفتيش شغل بشهادتك.. المؤهل بتاعك يسمح لك بكده!

ردَّت بابتسامة حزينة:

- بصرف النظر إن مصر قاسية على ولادا نفسن بموضوع الشغل وبالتالي راح تبقى أقسى علينا كأغراب، بحب قلك إنّي قدمت بكذا شركة وكذا جامعة لحتى أشتغل بس للأسف رفضوني لأنّي سورية وفيه حساسية من ناحيتنا بعد إشاعات من ناس الله يسامحن إنه في سوريين بيعملوا إرهاب بمصر.

لم يكن يعلم أن الصورة قد تكون قاتمة لهذا الحد.. صدمه الرد وألجم لسانه ولم يدرِ بما يرُد عليها.. سألها باهتمام محاولًا تغيير دفة الحِوار بعدما لاحظ تأثُرها:

- وانتي عايشة لوحدك هنا؟

أشارت بطول ذراعها إلى الخلف وقالت:

- لا معي أخي كمال خريج هندسة.. عم يشتغل بمحل حلاقة جنبنا هون بعدنا بشارعين.

- ومبسوط في شغله؟

تطرق برأسها في أسى وترد:

- كل كم يوم عم يقولّي إنه رفقاته المصريين بالمحل بيعملوا فيه شكاوي كيدية لصاحب المحل لحتى يطفّشوه من الشغل مع إنه مُهذب وكافي خيره شره.

فتح فاه مُتعجبًا في دهشةٍ وقال:

- وهمّا هيعملوا كده ليه؟

- صدقني ما بعرف.. أنا نفسي يا أستاذ كل يوم عم تمر لعندي ست كبيرة بتبيع خُبز بعدنا بشارعين وعم تبهدلني وبتدعي الله ياخدني لأني عم أخطف رزقا كيف ما بتقول وعم بيع خبز قريب من مكانها!

احمرت وجنتيه وشعر أن خجله يكاد يبتلعه وقال بجديّة:

- أنا فعلًا مش لاقي كلام أقولهولك.. معلش يا دكتورة.. أنا آسف بالنيابة عن ناس وعن ظروف ناس.. بس عايزك تعرفي إن كلنا أغلب من الغلب والله.

- بعرف وحياة الله.. إنتَ ما إلك ذنب كلنا ما إلنا ذنب.. ربنا ينتقم من اللي كان السبب هنيك أو هون.

تمر من أمامهما فتاة شاحبة الملامح رثّة الثياب لم يتعدَ عمرها العشرين عامًا.. تلمحها رندة فتجري نحوها قائلة:

- زينب.. بكرة انشالله الموعد لحتى يحاكموا الماما صحيح؟

تومئ الفتاة برأسها دون أن تنطق فتُربت رندة على كتفها في

حنـان بالـغ وتقـول:

إنشالله الله بيسترها معنا ويتلطف فينا. -

تنـصرف الفتـاة وتعـود رنـدة إلى نفـس مكانهـا.. يُحـاول الشـاب إضفـاء جـو مـن البهجـة في الحديـث فيقـول بمـزح:

- طيـب شـوفي بقـى أنـا سـاكن جديـد جـارك قريـب هنـا ويشرفنـي تعتبرينـي زي كـمال أخوكـي.

- أكيد.. خلاص إنتَ صِرت أخونا التالت.

- يـا سـيدي عـلى الرضـا.. طيـب مفيـش أي حاجـة تعوزيهـا مـن أخوكي؟

تبتسم وترد في جديّة:

- مـا بِـدي منـك إنـت بالـذات أخـي.. لكـن بـدي مـن إخواتنـا المصريـين.. العيشـة صعبـة عليكـن وعلينـا معكـن وإخواتكـن السـوريين مـش جايـين ياخـدوا رزقكـن مـن إيدكـن.. مـا في حـدا بياخـد رزق حـدا.. الله هـو يـلي بـيرزق.. ووجودنـا هـون ومـع إنـه بنـص أهلنـا المصريـين بـس عـم يضغـط علينـا كل يـوم وعـم نحـس بالغُربـة بسـبب بعدنـا عـن ديارنـا وأهلنـا وناسـنا.. مِنشـان الله لا تـزودوا غُربتنـا غُربـة فـوق الغُربـة.. وصدقنـي أخـي مـا في سـوري مـو موجـوع وفيـه بقلبـه غصّـة عـلى حـدا مـن أهلـه أو رِفقاتـه أو قراييبنـو.. منـن يـلي مـات أو يـلي خاطـر بحياتـو وركـب البحـر ليحـاول يبنـي مستقبله مـن جديـد بأوروبـا أو يـلي مسـجون أو مخطـوف.. شـو بـدي أحكـي؟.. بيكفـي تشـعر بالمرارة والخذلان لما تاخـد لقـب لاجـئ ويـن مـا رحـت.. خليهـا عـلى الله ومتـل مَبيقـول

المَثل: خليها بالقلب تجرح ولا تطلع لبرّه وتفضح.. الله يصلح حالكن وحالنا وبإذن الله تنفك هالديقة وبترجع بلدنا بلد الياسمين أحسن مما كانت.. الله كريم.

في هذه اللحظة تأتى طفلة صغيرة في حدود الست سنوات وتقول لها في براءة:

- أبلة رندة ماما بتقولك عايزة عيش وهتديكي الفلوس بكرة.

تنظر له في أسف وقبل أن تنطق يُناول الشاب للطفلة الكيس الذي بيده مُبتسمًا:

- خُدى يا حبيبتي.

تأخذ الطفلة الكيس وتنصرف.. ترمقه بنظرة امتنان فيبتسم ويهز كتفيه في لامبالاة ويقول لها في مرح:

- أنا بشكرك على الشوية دول بجد.

- أنا اللي بشكرك أخي.. الله يبعتلك الهنا.

تركها وأنصرف وهو يشكر القدر الذي تدخل في إعداد هذا اللقاء وزاد يقينه أن أغلى الأوقات في حياتنا تلك التي تُباغتنا دون أي تخطيط مُسبق.

(٨)

وصل أمانة

تبادلت السيدة العجوز الواقفة خلف قُضبان القفص الحديدي نظرات حزينة مُنكسرة مع ابنتها الفتاة ذات الـ ١٨ ربيعًا الجالسة في أول صف في قاعة المحكمة.. حاولت الابنة أن تُشجع أمها بشبح ابتسامة بدا باهتًا رغمًا عنها.. قبضت الأم بيديها على القُضبان التي أمامها، ونظرت إلى أسفل في مَرارة.. أصابعها كانت كثيرة العقد وعليها علامات الشيخوخة.. هزمها الزمن قبل أن يهزمها الحَبس.. بدت كمن ينتظر القول الفصل في حياتها وابنتها بعد لحظات.. رفعت رأسها إلى الأعلى وهمهمت:

- يا رب.

- محكَمة.

نطقها حاجب المحكمة في صَرامة، أعقبها وقوف كل الحضور، ثم دخول المُستشارين الثلاثة.. جلسوا.. جلس الحضور.. نظر القاضي بشكل روتيني في الأوراق أمامه وقال آمرًا:

- نادي على القضية.

- قضيــة ١٨ جنــح ســنة ٢٠١٥.. المُتهمــة نبويّــة الســيد محمــد مُختــار.

ينظر القاضي بزاوية مائلة من وراء نظارته نحو القفص:

- نبويّة هنا؟

السجينة بصوتٍ واهن:

- أيوا يا بيه.

مُقلبًا الأوراق التي أمامه يقول:

- نبويّــة أنــا اديتــك مُهلــة ٣ شــهور عشــان تســددي الفلــوس اللي عليكي .

ترد بصوتٍ مُختنق:

- مَقدرتش ألُّهم.

- ٣ شــهور مَقدرتيــش تدبّــري ٢٠٠٠ جنيــه؟!.. مَلكيــش قرايــب؟.. مَعندكيــش جــيران؟.. مَفيــش عفــش؟

تهز رأسها بالنفي وتنهمر دموعها على وجنتيها وتُجيب:

- مَفيش.

تقف الفتاة وترفع يدها وتُنادي:

- بعد إذنك يا فندم.. أنا بنتها.. ممكن أتكلم؟

يُشير لها القاضي أن تقترب:

- تعالي.. عايزة إيه؟

تتمالك الفتاة نفسها، ثم تستجمع شجاعتها وتقول بحروفٍ مُرتجفة:

- من سَنة أمي كتبت على نفسها وصل بالفلوس دي؛ عشان تدفعلي مصاريف الجامعة.

- ده دخله إيه بالقضية.

تُقاوم دموعها وترد:

- أمي تعبت كتير يا فندم، وإحنا مَلناش حد غير ربنا بعد أبويا.. أنا عايزة مُهلة تانية وأنا هنزل أشتغل لحد ما أجيب الفلوس، أو لو ينفع احبسوني أنا وبلاش هي.. والنبي والنبي يا فندم.

أطلقت تلك الكلمات بما يوحي بأن طعمها مر في فمها فسألها القاضي:

- إنتي اسمك إيه؟

- زينب.

- القانون مَلوش دعوة بالكلام ده يا زينب.. القانون يعني ورق وأمانة وحق ناس.. اتفضلي ارجعي مكانك.

تعود الفتاة في انكسار وينظر القاضي إلى الأوراق مرّةً أخرى، ثم يرفع رأسه مُناديًا:

- فين شوادفي؟

يقف أحد الحضور.. رجل في أوائل الستينيات من عمره..

يرتدي جلبابًا بلديًا فاخرًا وعِمَّة ضخمة على رأسه، مع شارب كث يحتل معظم مساحة وجهه.. يرفع يده ويهتف:

- أفندم.

- عندك استعداد تصبر على الست دي قد إيه؟

- ولا يوم واحد يا بيه.. أنا استعوضت ربنا خلاص في القرشين، بس عايز القانون ياخد مجراه ويجيبلي حقي منها.. ده مال أموات يا خلق يا هوه.

هز القاضي رأسه والتفت في حديث سريع مع عضوي اليمين واليسار، ثم قال:

- حكمت المحكمة على المتهمة فتحيّة بالحبس ٦ شهور.. اللي بعده.

فيض من الدموع انهمر على وجه زينب وهي تجتاز ساحة المحكمة الخارجية، وقد اسودت الدنيا أمام عينيها، وشعرت أن الأرض تدور تحت قدميها.. تسارعت الأفكار في عقلها وملأت رأسها العديد من الاستفهامات حول صورة مستقبلها كيف ستكون.. لم تستطع أن تمحو من مُخيلتها صورة أمّها بالزي الأبيض فتمزق قلبها..أخرجها من حالتها وقع الأقدام الذي ترامى إلى مسامعها يُلاحقها بسرعة وقبل أن تلتفت وراءها وُضعت تلك اليد الثقيلة على كتفها.. توقفت.. التفتت فوجدته حاجب المحكمة، ألقى نظرة سريعة على وجهها، ثم قال في سرعة:

- اجري اعملي تسوية بسرعة، قبل ما أمّك تبات في الحبس.

قالها، ثم مد يده إليها بظرف أبيض متوسط.

نظرت في دهشةٍ إلى الظرف وقالت:

- إيه ده أنا مش فاهمة حاجة!

- إنتـي ليكـي أكل ولا بحلقـة.. روحـي خلّـصي أمـك إنتـي مالـك.... ولاد الحـلال كتـير.

- أنا مش عارفه أقول إيه والله؟.. ربنا يكرمك.. ربنا يخليك ويرزقك و يـ..

قاطعها:

- يا بنت يالّا قبل ما أمّك تترحل على السجن.

لم تشعر بنفسها عندما طبعت قبلة على خده في سعادة، وجرت إلى داخل المحكمة مرّةً أخرى؛ لتبدأ في إجراءات الإفراج عن أمها.

على مسافة قريبة.. تحديدًا من نافذة غرفته مُختفيًا وراء الستارة الخضراء داكنة اللون، كان القاضي يُراقب الموقف كله.. التقت عيناه بعين الحاجب الذي هزَّ رأسه له، وتبادلا نظرة رضا.. أطلق بعدها القاضي زفرة ارتياح ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة فرحة وحرَّك شفتيه بكلمة (الحمد لله) بصوت غير مسموع.. شدَّ الستارة كما كانت منذ قليل، ودخل ليواصل عمله.

(٩)

لحمة بلدى

المسافة من مدخل الشارع الضيق الذي يسكن فيه وحتى باب العقار الذي يضم شقته، كانت تقريبًا ٢٠٠ مترًا.. مُهمة (شريف) الثقيلة مع بداية كل شهر هي عبور تلك المسافة بأقل عدد ممكن من الخطوات والثواني، بحيث لا يلمحه المعلّم (شوادفي) صاحب محل الجزارة القابعة في مُنتصف تلك المسافة بالضبط.. فبغير قيمة الإيجار الشهري التي ينتظرها الأخير، والتي غالبًا ما تتراكم على الأول لفتراتٍ طويلة قد تصل إلى عدة أشهر، إلّا أن هناك سببًا آخر لدى شريف يدفعه دومًا إلى مُحاولة تفادي هذا اللقاء الشهري، خصوصًا في ذلك اليوم.. كان يدعو الله أن يكون مُنشغلًا مع أحد زبائنه أو غير موجود من الأساس.. توكّل على الله وهَمَّ بخطوات أقرب إلى العَدْو.. بطرف عينه ودون أن ينظر، لمحه يجلس يُدخّن الشيشة خارج المحل.. لم يكن هناك مَفر من المواجهة.. مَرَّ مُسرعًا من أمامه، وألقى التحية عليه بارتباكٍ مُواصلًا سيره علّه لا يتنبه:

- سلامُ عليكم يا معلم.

- أهلًا أهلًا أستاذ شريف.. استنى يا أفندي والله.

استوقفته العبارة فعاد إليه:

- أؤمرني يا معلم.

- كل شهر وإنتَ طيب وبخير.

فهم ما يرمي إليه، وحاول التظاهر بعدم الفِهم:

- وإنت طيب يا معلم تسلم.

- مش ناوي تنفعنا بقى يا أستاذ؟

يرد شريف بخجل:

- ما أنا لسه جايب من عندك قُريب يا معلم.

- وإيه يعني؟!.. جيب تاني ما أنا مَبدقش معاك في الإيجار، وياما بفَوت لك.

- تصدق وتؤمن بالله، لسّه امبارح المدام جايبه لحمة من الجمعية.

- أيوه يا أستاذ، بس لحمة الجمعية مستوردة، برازيلي وده مش مقامك.. إنتَ مقامك الدبح.

- إيه؟!

- لا مؤاخذة متأخذنيش، قصدي البلدي يُوكَل، ده كفاية ريحته بس.. وبعدين إن مَكنش أهل منطقتي همّا اللي ينفعوني، يبقى أجيب ضُرفها أحسن ولا إيه؟

- لأ عندك حق يا معلم.

ينظر له شوادفي بغِلظة دون أن يتحدث، فيرتبك شريف، ثم

يُواصِل:

- حاضر، طب هو الكيلو الضاني عامل كام النهاردة؟

- من غير فلوس خالص.

- كتير يا معلم

- إيه؟

- آآآ قصدي ماشي اوزنلي نص كيلو.

يُنادي المعلم على أحد الصبية العاملين معه في المحل.

- اوزن كيلو يا باض يا حامد للأستاذ.

- لا كيلو كتير أنا عايز نص كيلـ...

- روح لـحامد هيقطعلـك الكيلـو حتـه حمـرا وملبِّسـة.. شرَّفـت يـا أفنـدي.

يُلقـي عليـه الجملـة، ثـم يعـاود تدخـين الشيشـة بتلـذذ غـير مبـالٍ بـشريف الـذي تـورط فأخـرج حافظـة نقـوده ليعـد الأوراق القليلـة التـي اسـتقرت داخلهـا في قِلـة حيلـة، ثـم يُناولهـا إلى الصبـي في قهـرٍ ويبـدو عـلى وجهـه الأسـى، ويهمـس بصـوتٍ خفيـض:

- روح يا شيخ ربنا يهدك.

شـعر بالمـرارة في حلقـه أثنـاء وقوفـه في انتظـار اسـتلام كيلـو اللحمـة المُجـبر عـلى شرائهـا شـهريًا، وظـل يُفكـر في كيفيـة مواجهـة زوجتـه بحجـة جديـدة تُـبرر لهـا نقـص الراتـب كالعـادة عندمـا تسـأله.. فجـأة ودون مُقدمـات تظهـر ثـلاث سـيارات شرطـة مُطلقـة سـارينة عاليـة تُحـاصر المحـل في سرعـة.. يهبـط منهـا عـدد

من الجنود يتبعهم ضابط شرطة برُتبة مُقدّم، يرتدي زيًا مدنيًا باتجاه المحل.. يقف شوادفي مذعورًا.. تسقط الشيشة من يده.. شريف مُتابعًا.. يمسح الضابط كل الموجودين بعينيه، ثم يتجه إلى شوادفي قائلًا:

- إنتَ صاحب المحل؟

- أيوا يا باشا تحت أمر معاليك.

يهتف الظابط مُوجهًا حديثه إلى العَساكر:

- هاتوه، وهاتوا اللحمة المتعلقة دي وشمّعوا المحل.

يتحرك أحد العساكر نحو شوادفي ويسحبه، بينما يقوم الآخرون بتنفيذ باقي الأوامر وسط ارتباك ودهشة الجميع من سُكان الحارة الذين تجمْهروا حول المكان.. ينظر شوادفي المسحوب من أحد العساكر إلى الضابط، ويسأله في حيرة:

- طب أفهم بس يا باشا عملت إيه؟

- امشي من سُكات مش عايز قلبة دماغ.

يتم إدخاله بعنف داخل إحدى سيارات الشرطة، ويقبع داخلها فيجري شريف نحو شوادفي قائلًا في تضرع:

- اديني فلوسي يا معلم الله يكرمك

يدفعه بقدمه ويصرخ في وجهه:

- غور أنا ناقصك وش فقر الله يحرقك.. أنا اصطبحت بوش مين النهاردة؟

يستعيد شريف توازنه من أثر الضربة، ثم يتجه إلى الضابط

الـذي يتابـع تنفيـذ العســاكر لأوامـره المطلوبـة بتركيـز ويقـول:

- معلش يا باشا خلّيه يديني فلوسي.

- فلوس إيه؟

- فلوس اللحمة اللي لبسهالي.. ده لسّه واخدها من شوية.

يُزيحه الضابط في عنف في صرامةٍ قائلًا:

- اتكل على الله، بدل ما أشدك معاه.

يمسك شريف بكتف الضابط في إصرارٍ مُتذللًا:

- طب حتى أخد اللحمة.

يخلع الضابط نظارته وينظر له في دهشة.

- دي لحمة حمير!

- مـش مشـكلة أنـا قابـل يـا باشـا.. مـا هـو مـش هيبقـى لا لحمـة ولا فلوس.

- امشي من هنا، إنتَ باين عليك مجنون إنتَ كمان.

يدفعـه الضابـط بعيـدًا بيـده، وتضيـع توسـلاته في الهـواء.. ينظـر إلى أعـلى نحـو شـقته، ثـم يبلـع ريقـه بعـد أن تمـر أمـام عينيـه كل السـيناريوهات المتوقعـة لـه بعـد مواجهـة زوجتـه بـما حـدث فيقـول مُحدِّثـا نفسـه:

- يا نهار اسود.

(١٠)

ماتفوتنيش أنا وحدى

وصل (شريف) أمام باب منزله وأدخل المفتاح وأدار المِزلاج بهدوء ودون إصدار أي صوت.. دخل.. مَر على الصالة بمنتهى الخِفة، حتى أصبح أمام باب غرفته الموارب.. مَدَّ رأسه مُحاولًا أن يستشف وجود زوجته واستيقاظها من عدمه، لكن الظلام بالداخل صعّب من الأمر، حتى فاجأه صوتها من خلفه:

- حمد لله على السلامة يا بيه.

انتفض والتفت وراءه بسرعة، ثم قال وعلى وجهه ابتسامة مُفتعلة:

- الله يسلّمك.. إزيك يا عُلا؟

تُشير إلى باب الغرفة وراءه:

- خُش عايزاك.

- استر ياللي بتستر.

يدخلان إلى الغرفة، يجلس على حافة السرير وتقف أمامه عاقدة كفّيها خلف ظهرها مُتحدثة بعصبية:

- شوفت المُصيبة اللي إحنا فيها؟

- مُصيبة إيه كفا الله الشر!

- ابنك بيحب.

يرد في سرعة:

- كويس والله، طلع أجدع من أبوه.

- كويس إيه!.. هو أنا بقولك طلع الأول في مدرسته؟!.. ابنك عنده ٩ سنين.

- ما هو الحُب ملوش سن يا حبيبتي.

تشير بيدها في تهديد قائلة:

- شريف..

ينكمش في مكانه ويرد:

- طب ممكن تهدي وتفهميني.. إنتي عرفتي إزاي؟

- سمعته بيتكلم عنها مع صاحبه في التليفون.

- بيقول إيه يعني؟

تُحاول تذكُّر الكلمات:

- بكره هقولها، آخر فرصة، نهى.. طراطيش كلام مَقدرتش أسمع كويس.. مش فاكرة بس إحنا قُدَّام مُصيبة.

يخلع حذاءه، ويهم بخلع بنطاله قائلًا بهدوء:

- لا مُصيبة ولا حاجة إنتي بس اللي مكبرة الموضوع.

- اسمع بص بقولك إيه.. من قبل جوازنا وإحنا متفقين هنربي ابننا إزاي.. دخلناه مدرسة أجنبية واكلة كل فلوسنا أول

بـأول.. تحويشـة العمـر وورثـي مـن بابـا وتمـن...

يُقاطعها في رَتابة:

- وتَمـن حِتـة الأرض بتاعتـي في البلـد والعربيـة الـلي اتباعـت وبتمنهـا كمِّلنـا عشـان مصاريـف مدرسـته والدهـب بتاعـك الـلي طـار كلـه.. حافـظ كل الـكلام الـلي هتقوليـه يـا عُـلا.

- ويـا ريـت تحفـظ كـمان إن أنـا مَعنديـش أي اسـتعداد أخـلّي الولـد يضيـع مننـا بعـد ده كلـه، فـيا تقـوم بـدورك كأب زي النـاس، يـا إمّـا والمصحـف هسـيب لـك البيـت.

يقف مُستكينًا ويقول في هدوء:

- خـلاص.. أنـا هعملـك الـلي يريحـك.. إنتـي عايـزة إيـه دلوقتـي؟

- تخشّـله حـالًا وتتكلـم معـاه وتخلّيـه يحكيلـك وتيجـي تحكيـلي وتعرفـلي أصـل القصـة دي.. الـواد هيضيـع مننـا.

- أخليّه يحكيلي غصب عنه يعني؟!

- لا مَتخفـش إنـتَ مدلعـه وهيحكيلـك.. مـش إنـتَ مَبيعجبكش أسـلوبي معـاه، خـلاص شـوفلك صِرفـة، وإلّا والله هدخـل أكسرلـك دماغه.

- الفكرة إني مش شايف الحكاية مستاهلة أساسًا و...

تقاطعه بحدة:

- شريف.. أنا روحي في مناخيري.

- حاضر حاضر.

يقولها في ضعف ثم يخرج من الغرفة مُتحركًا نحو باب غرفة ابنه، ويقف أمامها ولا يدخل.. يتردد.. يعود مرّة أخرى.. تُبادره ويدها في وسطها والغضب يتطاير من عينيها.

- مَدخلتش ورجعت ليه؟

- بصراحة؟

- بصراحة.

- من غير زعيق ولا شخط.

- من غير زعيق انجز.

- مش قادر ومش مقُتنع.. دي مرحلة طبيعية في حياته يا عُلا.. أي محاولة مننا إننا نخنقه هتجيب أثر عكسي معاه.

- يعني هنسيبه؟

يُجلسها بيده على السرير، ويجلس بجوارها ويُجيبها وهو ينظر إلى عينيها مباشرةً:

- هنخلّيه يجرب وهتابع من بعيد ووقت اللزوم لّما يحتاجنا نعلًا هيلاقينا فوق راسه.

- ولو اتكعبل وغلط؟

يواصل في حماس، وقد رأى بوادر الاقتناع تظهر عليها:

- واحنا رحنا فين؟!.. إنتي من ناحية وأنا من ناحية هنحاوطه، ومش هيحصل أي قلق من اللي في دماغك وبعدين إحنا مربينه كويس.

تتبخر عصبيتها شيئًا فشيئًا، وهي تفكر في كلامه.. يُمدد

جسده على السرير واضعًا رأسه على حجرها كما اعتاد دومًا.. كانت تُعامله كابن ثانٍ لها مع طارق ابنها، وكان يشعر بذلك.. لم تكن ترى في ضعفه أمامها إلا طيبة، ولم يُنقص قدره أو رجولته عندها تقبله الدائم لعصبيتها.. داعبت شعره بأصابعها وزينت وجهها ابتسامة رغمًا عنها عندما رأته يُغمض عينيه، وتأملت ملامح وجهه وخُيّل لها أنها تراه يضحك.. سألته بدهشة:

- بتضحك على إيه؟

اتسعت ضحكته أكثر وقال:

- الواد كِبر قوي.. بيحب!

- زمان كانت أكتر حاجة بنخاف عليه منها تعويرة في الركبة ولا خدش في راسه ولا سِنّة اتكسرت دلوقتي بقينا خايفين لقلبه يتكسر .

- حتى خوفنا عليه بيكبر معاه.

توافقه بإيماءة من رأسها.. لحظة ثم ترفع رأسه قليلًا برفق وتضع تحتها وسادة وتقول في حنان:

- قوم يالّا غيّر هدومك عُقبال ما أجهزلك الأكل.

تتحرك للخروج.. تقف وتنظر ورائها، ثم تتذكر شيئًا:

- آه صحيح.. حبيبي مَتنساش تسيب فلوس على الكومودينو، عشان أم كرم هتيجي تاخد الجمعية النهاردة.

يعتدل في جلسته في توتر مشوب بالقلق كمن أفاق من كابوس.

- الفلوس.. آه.

- مالك؟!

- من غير زعيق؟

تتبدل ملامحها للغضب مرّة أخرى وتهتف:

- المعلم زِفت عملها فيك تاني صح؟

يومئ برأسه إيجابًا، ثم يضع رأسه خلف المخدة ويقول:

- بس إيه بقى.. بتوع التموين جُم وجرجروه على ملا وشه وكان فُرجة.

لطمت زوجته على وجهها ورأسها صائحة:

- يا مصيبتي السودة يا خيبتي التقيلة اللي مَوردتش على حد، أعمل إينه فينك بس يا ربي أعمل إيه؟

يرفع رأسه في مرح طفولي ويهتف من وراء المخدة:

- مش كنتي طالعه تعملي الأكل.. اتكلي على الله.

- إنتَ بتغيظني يعني.. والله ما هسيبك؟

تقولها، ثم تُمسك بالمخدة الأخرى وتُلقيها عليه.. يتفاداها ويُلقي بمخدته على وجهها فيُصيبها.. تصرخ في وجهه، وهي تقف على الجهة المُقابلة من السرير، باحثةً عن شيء آخر تُلقيه عليه:

- هنكمّل الشهر إزاي؟

ضاحكًا:

- مش عارف.

- هناكل منين وهنصرف إزاي؟

يرتفع صوته بالضحك أكثر:

- والله ما عارف.

تنتقل إليها عدوى الضحك التي انتابته وتواصل مطاردته وهي تهتف:

- وأنا والله ما هسيبك.

يدخل ابنهما عليهما الغرفة فجأة في تلك اللحظة وينظر إليهما في صمت لحظةً، ثم يتحدث:

- بابا.. ماما.. ممكن لو سمحتم تبطلوا حركات العيال بتاعتكم دي شوية عشان أنا مشغول بموضوع مهم.. ممكن؟

يقولها، ثم يخرج فينظران إلى بعضهما البعض ويواصلان الضحك.

(١١)

لطشة حب

كعادة أغلب الأطفال الذين يطلقون العنان لقلوبهم الصغيرة لتُحلِّق في أجواء الرومانسية الغَضَّة ويمعايير طفل لم يتجاوز التاسعة من عمره بعد. وجد (طارق) طالب الصف الرابع الابتدائي في (نهى) فتاة أحلامه!.. ابتسامتها الرقيقة، دَرَّاجتِها القُرمزية الصغيرة، وكرمها المُتمثل في أطنان الحلوى التي تُخفيها يوميًا في حقيبتها الصغيرة، وتوزِّع منها على كل من تُقابله بطيب خاطر، كلها عناصر كانت كفيلة بإقناعه أنه وجد نِصفه الثاني.. رغم وجود كل منهما في فصل مختلف، إلّا أنه اعتاد أن يراها يوميًا.. دومًا كان يجد حجة ما ليفتتح معها حديثًا و سُرعان ما ينتهي قبل أن يبدأ.. أحبّها ويقى أن يعترف لها.. عندما قرر أن يبوح بما يعتمل في نِفسه، كان دومًا يفشل في الانفراد بها ليُلقيها على مسامعها، فهي مُحاطة دومًا بزميلاتها.. تأخرت الفرصة كثيرًا حتى جاءت في إجازة مُنتصف العام، وعندما شارف (طارق) أن يفقد الأمل نهائيًا.. وقتها وقف بطريقة استعراضية وفخر على أحد كراسي غرفة صديقه (لؤي) أثناء زيارته قائلًا:

- المسرح.

نظر لؤي إليه، وقال في دهشة:

- مسرح إيه؟

نزل من فوق الكُرسي وهتف في حماس:

- مدرستنا اشتركت في مسابقة المسرح بتاعت المدارس، و نُهى في فريق التمثيل.

- أيوه، وإنتَ مالك بقى!

- دا إنتَ غبي قوي.. هاشترك.

- إنت بتعرف تمثِّل؟!

- مَبعرفش بس هخش.

- يا ابن الإيه..

اشتركت مدرستها في مسابقة العروض المسرحيّة على مستوى المحافظة.. نُهى عُضوة في فريق التمثيل.. بعض الإلحاح على مسئول المسرح بالمدرسة انضم طارق أيضًا إلى الفريق المسرحي.. قصة المسرحية الغنائية تدور حول فريق من الملائكة يمثلهم مجموعة من ٨ بنات يرتدين فساتين بيضاء على ظهورهن أجنحة بيضاء مع مجموعة من ٨ أولاد كل واحد منهم يمثل دولة عربية مُختلفة مُرتديًا الزي الرسمي الخاص بها.. كل بنت تخرج من الكواليس مُمسكةً في يدها ولدًا.. يظهر الثنائي على المسرح.. تتركه البنت وتدخل إلى الكواليس.. يقف الولد

في مُتصف المسرح ليُلقي أبياتًا شعرية مُعبِّرة عن دولته، وبعد انتهائه تعود البنت من الكواليس لاصطحابه مرّةً أخرى إلى الداخل.. حتى الآن تبدو الأمور بسيطة سلسلة ومُهيأة كي يجد اللحظة التي يُنفِّذ فيها ما يحلم به، حتى ظهرت مشكلة أخرى كانت موجودة من البداية، ولكنه لم ينتبه إليها إلّا قبل العرض بيومٍ واحد فقط.

- مشكلة إيه تاني؟!

نطقها صديقه الصدوق وكاتم أسراره عبر الهاتف بتعجُّب، فأجابه طارق هامسًا:

- نُهى مش هتمسك إيدي أنا.. هتمسك إيد وليد.

- إزاي؟

- أنا واخد دور السعودية وهتشدني هالة.. ونُهى هتشد وليد اللي واخد دور البحرين.

- البت هالة تختخ الوحشة دي؟

- آه فاكرها؟.. اللي شوفتها معايا في الدرس قبل كده.

- أيوه عارفها.. طب ما تبدلوا؟!

- أنا عادي بسّ مَينفعش.. بس المِس نيفين مظبطانا كده ومش هترضى.

- قول لوليد بينك وبينه.

- عيل غلس ورخم ومش بحبه.

- طيب هتعمل إيه؟

- أنا بقولك عشان تسألني؟!.. ما تفكر معايا.

لم يحصل على إجابة شافية من صديقه، فأنهى المكالمة، وظلَّ طوال الليل يتقلب فوق سريره كالمحموم يعصر مخه للعثور على حل.. قبل الفجر بلحظاتٍ هداه تفكيره الشيطاني إلى حيلة لن تُكلِّفه إلّا ورقة كراسة وقلم رصاص.. قفز على قدميه وجلس فوق مكتبه، ثم أمسك بورقة وخط فوقها.. في اليوم التالي يوم العرض المسرحي وقبله بساعةٍ تقريبًا وأثناء استعداد الأطفال خلف الكواليس للعرض توارى طارق عن نظر وليد صديقه، وتوجَّه مُتصنِّعًا الخجل نحو هالة مُعطيًا إيّاها ورقةً صغيرة مَطوية:

- وليد باعتلك دي.

- بجد؟!

تخطف الفتاة الورقة بلهفةٍ وتفتحها، ثم تقرأ السطر القصير الوحيد المكتوب فيها (هالة أنا بحبك من زمان أوي.. وليد). كاد قلب المسكينة أن يقفز خارج صدرها من فَرط سعادتها، ولم تجد إلّا حروفًا مُضطربة تخرج من فمها الصغير أمام طارق:

- ده بجد؟!.. ده بجد؟!

أومأ طارق برأسه إيجابًا مُبتسمًا فواصلت المسكينة:

- أنا مش عارفه أعمل إيه دلوقتي؟

مال على أُذنيها هامسًا وكأنه يبوح لها بسرٍ خطير:

- هـو مستنيكي، وأنـا اتفقـت معـاه إنـك تطلعيـه عـلى المسرح بـدل نُهـى.

- بس أنا هتكسف.

- هـو بيتكســف أكـتر منـك.. مَتخافيـش مُحـدش هياخـد بالـه والله.

كانـت كلماتـه كالسـحر، وبـدت مُقتنعـة بهـا أو لعلّهـا أرادت أن تقتنـع.. حتـى بـدأت المسرحيـة وجـاء دور وليـد ونُهـى.. اقتربـت مِـس نيفـين مُشرفـة العـرض المسرحـي مـن الطَلَبـة في الكواليـس تبـدو أمـارات العصبيـة عـلى وجههـا وهتفـت:

- يالّا بسرعة اجهزوا.. أول دولة تدخل المزّيكا بدأت.

بمُنتهى الهيام تحرَّكت هالة وهـي تُرفـرف بأجنحتهـا الاصطناعية وتـدبُّ بقدميهـا الثقيلتـين بقـوةٍ عـلى أرض، ومـرَّت بـنُهى فأزاحتهـا مـن طريقهـا، ثـم جـرت ناحيـة وليـد وسـحبته نحـو المسرح وسـط اندهاشـه وعـدم استيعابه لِمـا يجـري صارِخًـا:

- إيه ده عايزة إيه!.. سيبيني سيبيني.

لم تفلـح مُحاولاتـه في الإفـلات مـن قبضتهـا الحديديـة، وخرجـت بـه رغـمًا عنـه إلى المسرح، وباقـي الشـباب غارقـون في موجـةٍ مـن الضحـك في الكواليـس.. وقـف وليـد في مُنتصـف المسرح تمامًـا ومـازال لم يفـق مـن صدمتـه، وتنقّـل بـصره بـين النظـرة البلهـاء المرسـومة عـلى وجـه هالـة وبـين الجمهـور، ثـم انتبـه فجـأة لموقفـه

وألقى أبيات الشعر الخاصة به في ارتباك، وبعد أن انتهى لاحظ أن هالة تتجه إليه مرّةً أخرى، فجرى ناحية الكواليس وهي وراءه.. استدعت حالة الهرج والمرج الخارجة عن السيطرة تلك تحرك مُديرة المدرسة من مقاعد المُتفرجين إلى ما وراء الكواليس بحثًا عن مِس نيفين وعندما وجدتها ارتعدت الأخيرة فقالت لها الأولى:

- مِس نيفين إيه التهريج اللي حاصل ده؟

- يا فندم مش عارفة الولاد اتجننوا دول ولا إيه!

- تمام.. ولحد ما تعرفي حضرتك مخصوم منك ٥ أيام بصفتك مسئولة عن النشاط ده.

- ما هو يا فندم ماينفعـ....

لم تستمع المُديرة إلى باقي عبارتها وانصرفت عائدة إلى مِقعدها فنظرت نيفين بغضب إلى باقي الأطفال صارخةً:

- جننتونى هو أنا ناقصة.

وسط كل هذه الدربكة وانشغال الكل بمتابعة المُطاردة بين وليد وهالة ثم دخول المُديرة وحديثها العنيف مع نيفين ، كان هناك شخص واحد فقط مُتنبهًا، مُتيقظًا ومُترقبًا للحظة الحسم.. طارق.. جرى ناحية نُهى ومدَّ لها يده، وهي مدَّت يدها له ولم تشعر بأي شيء غير طبيعي.. وقفا في نِصف المسرح وحاولت ترك يده لتدخل حتى انتهائه، لكنه ظلَّ مُتشبثًا بيدها في قوة..

صُدمت الفتاة.. حاولت مرّة واثنين لكنها فشلت فاستسلمت للوضع رافعةً حاجبيها في دهشةٍ.. أمّا هو فقد أراد أن يواجه الناس وهي معه.. شعر أنه يُحلّق عاليًا، ويلمس برأسه الصغير السماء، وانفصل عن الواقع تمامًا، ثم ألقى أبيات الشعر بمُنتهى الاندماج.. كان أفضل طفل ألقى الشعر يومها.. وبعد أن انتهى ضجّت القاعة بالتصفيق الحاد له فرفع يده وأشار لـنُهى مُوجِهًا الناس لتحيتها أيضًا ففعلوا!.. انحنيا أمام الجمهور، وفي تلك اللحظة أثناء الانحناء أدار رأسه بسرعة خاطفة وألقاها نحوها:

- بحبك.

نظرت له نهى غير مُصدِّقة، وجحظت عيناها في ذهولٍ قبل أن تضحك وتُغطي فمها بيدها، ثم تفلت يده وتجري في سرعةٍ إلى الكواليس.

(١٢)

بوكيه ورد

- اسمع يا ابني منك له.. بالطول بالعرض تشوفولي حل في أم المشكلة دي.. أنا عمري ما قصرت مع حد منكم في أي حاجة.

قالها (كيرلس) أمام صديقاه مصطفى وثامر.. ثلاثة أصدقاء.. مُسلمان ومسيحي.. لم يتجاوزوا مُنتصف العشرينات بعد.. بحكم العِشرة إخوة إن جاز التعبير وبحُكم الطبائع شياطين إن أردت الدِّقة.. اختلف كيرلس مع خطيبته نيفين خلافًا حادًا أوشك أن يعصِف بالعلاقة.. حتى عندما حاول بالأمس القريب أن يزورها أثناء عرض المسرحية المدرسية التي تُشرِف عليها باءت مُحاولته بالفشل الذريع وكانت عصبية جدًا في ذلك اليوم لسببٍ لم يفهمه. وتقريبًا طردته.. أعادت له الدبلة مع تحذير صريح منها بعدم محاولة إعادة المياه إلى مجاريها لأن (اللي بينا انتهى خلاص) كما قالت.. لم يجد إلّا صديقاه وشريكا كل لحظات الجنان ليلجأ لهما.. بعد لحظات قليلة من التفكير طرقع مصطفى إصبعه الإبهام والوسطى وقال بحماس:

- العيد بتاعكم بكرة ما تروح لها وتصالحها في الكنيسة

وانتـوا بتعيّـدوا هتتفاجـئ بيـك وهتتبسـط وهتتكسـف ترفـض.

نبتت الفكـرة في ذهـن مصطفـى وأعجبت كيرلـس وأيّدهـا تامر.. لكـن كيرلـس اشـترط وجودهمـا معـه كنـوعٍ مـن الدعـم النفسـي وتحسُّبًا لأي رد فعـل غـير مُتوقـع مـن خطيبتـه قـد يُحرجـه.

- أنـت عبيـط يـا كيرلـس.. كنيسـة إيـه الـلي نروحهـا دا إحنـا بنصـلي الجمعـة بالعافيـة.

قالهـا تامـر باسـتنكار لكـن لم يسـتغرق كيرلـس وقتًـا كثـيرًا ليُقنعهـا بـضرورة مُسـاندته في أزمتـه.. ذهبـوا وحتـى تكتمـل الصورة اسـتوقفهم مصطفـى عنـد بـاب الكنيسـة مُوجهًـا كلامـه إلى تامـر:

- هيخش يصالحها بإيده فاضية كده؟

يرد:

- المفروض لأ وش.

يبحـث مصطفـى حولـه فيجـد محـلًا للزهـور بجـوار الكنيسـة فيشـير لهـا أن يتبعـاه.. يدخلـوا ويتحـدث مـع عامـل المحـل:

- والنبـي يـا برنـس عايزيـن بوكيـه ورد حاجـة كـده آخـر جَتلـة عشـان معانـا واحـد رايـح يصالـح خطيبتـه بـس بسرعـة.

كانـت أول مـرّة تطـأ أقدامهـا كنيسـة.. بمُجـرّد الدخـول جلـس الثلاثـة في الصـف الرابـع.. لمحـوا نيفـين تجلـس في الصـف الأول بجـوار أسرتهـا.. تسـلل كيرلـس إلى مكانهـا وجلـس بجوارهـا.. فوجئـت بـه.. ارتبكـت.. نظـرت لـه نظـرة عِتـاب لم تسـتغرق ثـوانٍ ثـم التفتـت وراءهـا فلاحظـت وجـود أصدقـاء خطيبهـا فابتسـمت.. عندمـا عـادت ببصرهـا إليـه فوجئـت بـه يُخـرج بوكيـه الـورد المُخبأ خلـف ظهـره فـزاد خجلهـا.. أمسـك بيدهـا وأخـرج الدبلـة مـن

جيبه وهمَّ بإلباسها لها.. كان يبدو أن الأمور تسير نحو الأفضل بأسرع مما توقعوا.. بدأت أصوات الترانيم تعلو تدريجيًا.. لم يستطع مصطفى وتامر استخلاص ما يُقال بالضبط لكنهما أحسَّا بحالة روحانية عمَّت على المكان مع جزء من السلام النفسي الداخلي لأنهما كانا سببًا في فرحة ضلع المثلث الثالث.

فجأة وبدون مُقدمات وقف الحضور في كل الصفوف وبدا أن فاعلية ما ستحدث.. لحظة وفوجئوا بقس الكنيسة يقف في مُنتصف القاعة أمام المِنصة مباشرة وبيده علبة متوسطة الحجم وضعها على مِنضدة بجواره.. اضطر الجميع أن يقفوا.. التَهَمَ تامر ومصطفى الصفوف بأعينهما بحثًا عن كيرلس ولكنه كان قد اختفى تمامًا.. أصبح لِزامًا عليهما وحتى لا يبدو موقفهما شاذًا أن يتصرَّفا من أنفسهما فاضطرا للوقوف في صفوف الحضور التي بدأت في التوجه إلى مكان وقوف القِس تِباعًا.. اضطرا للتحرك معهم وهم لا يعرفون ماذا سيحدث.. كان تامر يسبق مصطفى في الدور مما أتاح له أن يلمح ما كان يجرى.. كان القِس يُهدى كل من يقف أمامه صليبًا صغيرًا لونه فضي.. جاء دورهما فأخذ كل منهما صليب ثم عادا لمكانيهما وتنفسا الصَعداء.

غمز مصطفى لـ تامر بعينه قائلًا:

- إيه رأيك؟

سأل تامر غير مُستوعبًا:

- إيه رأيي في إيه؟!

بدا عليه الضيق من عدم استيعاب صديقه فأجابه مُمسكًا بالصليب أمام وجهه هامسًا:

- ده صليب فضّة ومتهيألي كده عادي ومفيهاش حاجة لو روحنا وأخذنا تاني.

استنكر تامر الفكرة ورفضها بعد أن فهم ما يرمي إليه.. حاول إثناءه ولكنه رفض.. أعجبت مصطفى التجربة وكررها مرّة ثانية وثالثة وفي كل مرّة كان يُغريه النجاح أكثر فأكثر.. تشجّع.. كررها للمرّة الرابعة ووقف في الطابور مُنتظرًا دوره.. في تلك اللحظة عاد كيرلس إلى مكانه بجوار تامر ولم يكن يدري بكل ما يحدث.. رَبَتَ كيرلس على كتف تامر وعلى وجهه ابتسامة ارتياح وقال:

- خلاص صالحتها.

كتم تامر ضحكته وهو يرد عليه بعد نظرة خاطفة لمصطفى الواقف في الصف:

- هو فعلًا خلاص.

لم يفهم كيرلس قصده في البداية لكن نظرة واحدة منه لمكان مصطفى الفارغ جوارهما ثم نظرة إلى الطابور جعلته يستوعب الأمر فصرخ:

- الله يخرب بيوتكم هتودوني في داهية.

في تلك اللحظة كان مصطفى قد وصل أمام القِس وبالفعل همَّ بإعطائه صليبًا رابعًا لكنه انتبه في اللحظة الأخيرة ونظر إليه بدهشة وسأله مُتعجبًا:

- الله!.. إنتَ يا ابني مش أخدت من شوية؟

أجاب مصطفى بسرعة وتلقائية:

- مين؟ أنا؟! لا والمصحف.

(١٣)

إيد بطالة

في المترو، وبمجرد انغلاق بابه اتجه الشاب بقوة الدفع الذاتي للكُتل البشرية المُحيطة به من كل جانب نحو الباب المُقابل المُغلق.. استند عليه واستقر.. تحرك المترو ورغم إنه يحفظها عن ظهر قلب، إلّا أن الشاب نظر في تململ إلى اللوحة الموجودة فوقه؛ ليحسب عدد المحطات المتبقية، فأطلق زفرة حارة من أعماقه كانت مُحمّلة بتعب ٩ ساعات عمل مُتواصل انتهى منها للتو قضاها كاملةً بدون أي لحظة راحة في محل الزهور الذي يعمل به. فاليوم هو عيد الأقباط والمحل يقع بجوار الكنيسة مُباشرةً فكان الإقبال عليهم غير تقليدي، مُقبلًا على ٩ ساعات شاقة أخرى لعمل ثاني في طريقه إليه يتخللها ساعة راحة واحدة فقط يقضيها في الطريق من هنا إلى هناك عبر المترو.. لحظات و لَفت نظره شاب أسمر يقف في هدوءٍ على مسافة قريبة منه يدس يده بانسيابية في حقيبة سيدة واقفة بجواره.. تلاقت أعينهما هو والشاب الآخر.. ارتبك الثاني بمُجرد رؤية الأول وبدا أن بينهما معرفة سابقة.. سحب الأسمر يده الفارغة

مـن الحقيبـة بنفـس الخِفـة، ثـم شَـقَّ طريقـه واتجـه إلى الشـاب الأول، حتـى وصـل إليـه وقـال في خجـل:

- لا مؤاخذة يا كبير.

ابتسم وردَّ عليه:

- إزيك يا كوارشي؟

- نحمده.

- إنت ماسك خط المترو دلوقتي؟

يُخرج الثـاني علبـة السـجائر مـن جيـب قميصـه العلوي ويسـحب واحـدةً يعـزم عليـه بهـا في ودٍ حقيقي:

- هنعمل إيه بس.. أكل العيش يا كبير هو أنا اللي هقولك.

يرد الأول يده قائلًا:

- هي هربانة منك خالص كده؟!.. السجاير ممنوعة في المترو.

ينتبه الثاني ويُغمغم قائلًا:

- آه لا مؤاخذة نسيت.

يضع العلبة مرّة أخرى في جيبه ويواصل بحماس:

- والله واحشـني وواحـش الـكار كلـه.. لسّـه كنـا في سـيرتك أنـا وعرفـة مـن قيمـة كام يـوم بنقـول فـين أيـام أبـو عـلي وإيـده الـلي تتلـف في حريـر والدمـاغ الألمظـات والـ....

يقاطعه الشاب في حَسم:

- مَلوش لزوم.. حدوتة واتقفلت خلاص.

يسـتقبل كـوارشي العبـارة السـابقة في خيبـة أمـل، ثـم يسـتعيد حماسـه ويهمـس في أذن الشـاب:

- طب حيث كده ماتِيدي أخوك كده كام زتونة من راسك المِتكلفة تنفعه ويمشي بيها في الأيام السودة دي

يرد بسرعة:

- بطّل النهارده قبل بكرة وشوفلك شُغلانة شريفة.. مش لازم تتلسع عشان ترتجع.

- الله الله!.. إيه كلام المسلسلات ده.

- أنا عايز مصلحتك وبجيبلك من الآخر.

- مَلكش فيه يا زميلي وإن كان على الواجب بتاعك مَردودلك قريب.. أنا ابن أصول ومَنكرش الجميل.

هَمَّ بالتحرك مُبتعدًا بعد أن قال العبارة السابقة، لكن الشاب أمسك يده واستوقفه قائلًا:

- مُصمم يعني؟

يُفلت الثاني يده منه، ويقول بصوتٍ خافت ساخِر وفي لهجةٍ استفزازية:

- ماقولتلك مَلكش فيه.. أنا كده وهفضل كده.. وبعدين إنتَ إيدك بقت ناعمة كده ليه يا أبو علي؟.. باين إنك خدت على الرَكنة.. إلّا قولّي صحيح بتكسب حلو شغلانة بياع الورد دي؟

يبتسم الشاب في سُخرية:

-هَدّي خُلقك بس.. أنا كنت بنكشك.

- يعني إيه؟

- كنت بتأكد إنك مش خفيف.. هات رقمك هعوزك معايا في مصلحة قريب.

يقول بحماس:

- قُل عليك أهو هو ده الكلام يا برنجي.. اكتب عندك (٠١٠ ....)

يُخرج الشاب الأول موبايله من جيبه ويمر على الأسماء المُسجلة عنده في الهاتف بسرعة، حتى يقف أمام اسم ورقم اللواء فُلان الفُلاني ويُمليه لـ (كوارشي).

- ودي نمرتي يا برنس.

- قشطة عليك.

- سجلها بقى وكلمني ضروري النهارده بالليل، بس بعد الساعة ٢، عشان أكون وصلت البيت ونعرف نتكلم على رواقه.. أنا بسهر مَتقلقش.. رِنْ عليّا لحد ما أرد.

- حصل يا كبير.

بعد أن وَدَّع كوارشي، ينزل الشاب بعد عدة محطات تالية بمفرده، وعلى وجهه ابتسامة قائلًا بصوتٍ لم يسمعه إلّا هو:

- بالهنا والشفا.. اِلبِس.

هَمَّ بالتحرك وبحركة اعتيادية تَحسَّسَ جيب بنطاله الخلفي فوجده خاليًا من محفظته.. تَسمَّر للحظة.. فأدرك ما حدث.. ضرب كفيه ببعضهما وهتف بصوتٍ عالٍ لم يلبث أن تحول إلى ضحكة مُجلجلة تردد صداها في رُدهات المحطة كلها:

- يا ابن الكاااااالب.

(١٤)

زحمة

كان الوقت قد قارب مُنتصف الليل أو بعدها قليلًا.. الحركة هادئة أو شِبه مُنعدمة داخل ردهة تلك المستشفى الخاصة.. تجلس (ناهد) موظفة الاستقبال على مكتبها خلف اللوح الزجاجي الفاصل بينها وبين الجمهور.. يظهر (حسن) سائق سيارة إسعاف المستشفى أمامها.. تُشير له أن يدخل إليها الغرفة عبر الباب الجانبي.. يدخل.. يسحب كرسيًا ويجلس بجوارها.. تنظر إلى وجهه المُتجهم، فتسأله:

- مالك؟.. فيك إيه؟

- ماليش.

- أستاذ منير سأل عليك.

- وقولتيله إيه؟

- قولتله إنك استلمت من شوقي، ورحت تجيب عشا.

مُشيرًا بيده في ضجر:

- يغور يلعن أبو شكله.

- خلّيني أنا كده أفضل أداري وألِم وراك.

يقف ويهمّ بالانصراف محُذرًا ويقول:

- بت!.. هقوم أمشي.. أنا مش ناقص.

تمسك بذراعه ليجلس، وتقول مُعاتبة:

- والنبي إيه!.. هو خدوهم بالصوت قبل ما يغلبوكم!.. جاي متأخر وكلمتك امبارح مَردتش عليّا ليه؟

يُلقي بجسده على الكرسي مرّة أخرى، ثم يُغمض عينيه في إرهاق واضح:

- أنا هسيب الشغل التاني.. مش قادر أواصل خلاص.

- ما قولتلك.. معلش.

- إنتي كنتي صح.. ١٨ ساعة كل يوم ما بين هنا وهناك، حِمل محدش يقدر عليه.

تحتضن كفه بيديها وتبتسم قائلة:

- اعمل اللي تشوفه كويس وهيريحك.

يُربت على يدها برفق ويتجه نحو الباب قائلًا:

- هروح ألبس اليونيفورم وأقعد في العربية.

- مش ناسي حاجة؟

يَستوقِفُهُ سؤالها، فينظر إليها مُتسائلًا.. تقطب حاجبيها بغضب وتشير إلى النتيجة المُعلقة على الحائط خلفها:

- النهاردة ١ يناير .. أول يوم فى السنة يا أستاذ.

فَهِم ما تَرمي إليه فنظر إلى السقف، وغمغم قائلًا:

- آه.. الموال إياه.

- يا حسن أنا وأمّي لَحنَا لأبويا أكتر من مرّة وشكلي بقى نيلة.

- هو أبوكي هيطير؟!.. أنا قولتلك مَقدرش أخش بيوت الناس يا بنت الناس إلّا وأنا مِتأمن.. مَقدرش أبهدلك معايا.

- وأنا رديت عليك وقولتلك أنا راضية وموافقة، حتى لو هنعيش على حصيرة.

- أنتي تقولي زي ما أنتِي عايزة، لكن مين يقبل؟

- الجواز مش محتاج غير مطرح يلمنا وبطاقة.. والمطرح موجود.. إيه بقى مَعكش بطاقة؟

يبتسم بسخرية، وقد تذكر ما حدث له منذ قليل فيقول:

- إنتي بتقولي فيها.. المحفظة اتلطشت في المِترو.

- أهو هيدَخل الهزار في الجد.

- مابهزرش والله ده.....

يقطع حديثهما صوت طفل صغير تظهر رأسه بصعوبة خلف اللوح الزجاجي:

- عايز عربية إسعاف بسرعة تيجي معايا تجيب ماما.

تعتدل ناهد في جلستها وتنظر إلى أسفل حيث مصدر الصوت، فتجد طفلًا لا يزيد عمره عن ١٢ عامًا غطت الدموع

وجهه وتصبب عرقًا غزيرًا.. يلهث في سرعةٍ حتى خُيِّل إليها أنها تسمع صوت دقات قلبه من مكانها.. ردَّت في روتينية:

- عندها إيه؟

يُجيب الطفل بكلماتٍ غير مُرتبة ومن وسط دموعه:

- هي عيانة من زمان، ولّما رجعت من الدرس لقيتها مش عارفة تاخد نفسها ولا تتكلم.

- ساكنين فين؟

يمسك صدره في ألمٍ ومازال يلهث، ثم يقول بصوتٍ مُتهدج:

- في شارع حسن محمد.

تُواصل ناهد بنفس الروتينية:

- أجرة عربية الإسعاف عشان تطلع معاك ٢٥٠ جنيه.

صدمته الجملة السابقة، فارتبك وقال:

- أنا مش معايا فلوس دلوقتي، بس عمي هيوصل بكرة وهيديكم اللي انتم عاوزينه.

- مش هينفع يا حبيبي.

يصرخ في وجهها بمُنتهى القوة:

- يعني إيه مش هينفع؟!

ردت عليه:

- مَتزعقش.. مش هينفع يعني مش هينفع، مَفيش عربية بتطلع يا بابا إلّا لما تتدفع الأجرة بتاعتها الأول.. فهمت؟

نطقتهـا في قسـوة اعتـادت عليهـا يوميًـا، ثـم التفتـت لتواصـل حديثهـا مـرّة أخـرى مـع حسـن الـذي كان يتابـع الموقـف بأكملـه، لكنهـا وجدتـه ليـس مُنتبهًـا لهـا، بـل للطفـل:

- استنى ماتمشيش.. أنا جاي معاك.

نطقها حسن في حسم، فنظرت إليه ناهد في ذهول وقالت:

- رايح معاه فين إنتَ اتجننت؟!

تجاهلها وواصل حديثه مع الطفل:

- شـايف عربيـة الإسـعاف اللـي واقفـة بـرّه دي.. استناني عندهـا وأنـا هجيـب المفاتيـح ولحظـة وجايلـك.

تهللـت أسـارير الطفـل، وجـرى إلى الخـارج، وتحـرك حسـن نحـو الداخـل فنادتـه ناهـد:

- حسن!

قال بصرامة:

- الدنيـا مـش هتطـير يـا ناهـد نكمـل كلامنـا بعديـن.. فيـه واحـدة بتمـوت.

ردت في خجل:

- مـش قصـدي.. أقصـد لـو أسـتاذ منـير لقـاك خرجـت بالعربيـة مـن غـير مـا نِطَّلَع وصـل بالـ....

يُقَاطعها وهو يشيح بيده غير مهتم:

- ملعون أبوه.. إبقي خلّيه يخصمهم من مرتبي.

قالهـا، ثـم تحـرك.. نظـرت إليـه في هيـام وتابعتـه حتـى اختفـى، ثـم تمتمـت بصـوتٍ خفيـض بينهـا وبـين نفسـها:

- هو أنا بموت فيك من شوية.

لم يستغرق زمـن الوصـول للمنـزل مـع مُهمـة إنـزال والـدة الطفل مـن الـدور الأول وحملهـا في السـيارة أكثـر مـن نصـف سـاعة.. فـما كان يُدركـه حسـن جيـدًا كسـائق مُحنَّـك أن الأزمـة كلهـا تكمـن في طريـق العـودة إلى المستشـفى مـرّة أخـرى عـلى الرغـم مـن أن المسـافة لا تتجـاوز ثلاثـة كيلـو مـترات فقـط يسـتطيع أن يقطعهـا في خمـس دقائـق عـلى الأكثـر، إلّا أنـه بعـد تغيـير الشـكل الهنـدسي للطريـق وجعلـه اتجـاه واحـد فقـط، أصبـح الأمـر مُسـتحيلًا.. أو كاد.

في القسـم الخلفـي للسـيارة ترقـد الأم شِـبه غائبـة عـن الوعـي وفاقـدة للنطـق تمامًـا، تنظـر إلى سـقف السـيارة الداخـلي بنظـرات خاويـة.. يمسـك ابنهـا بيدهـا مُحـاولًا بَـثّ الطمأنينـة فيهـا.. كانـت عاجـزة عـن التحكـم في رأسـها.. تشـير بيدهـا الأخـرى نحـو البـاب إشـارات مُبهمـة تُترجـم مـا يمـوج داخلهـا.. احتضـن رأسـها باكيًـا مُربتًـا عليهـا برفـق:

- والله هتبقي كويسة مَتخافيش.

اخترقـت سـيارة الإسـعاف حشـود السـيارات وتجاوزتهـا سـيارة تِلـو الأخـرى مطلقـة السـارينة المُميـزة.. يضغـط حسـن عـلى آلـة التنبيـه؛ كـي يُفسـحوا لـه طريقًـا وسـط هـذه الفـوضى التـي كان يعـج بهـا الشـارع.. بنـبرة رجـاء جـاءه صـوت الطفـل عـبر الشـباك الصغـير الواصـل بـين كابينـة القيـادة والقسـم الخلفـي:

- بسرعة بسرعة وحياة ربنا.

لم يكن حسن ينتظر توسُّل الطفل، فبالفعل كان يسير بسرعةٍ لا تتناسب لا مع حدود المسموح به وسط المدينة أو حتى مع حالة المريضة التي معه.. كان عليه أن يقطع الطريق حتى نهايته، ثم يعبر كوبري صغير ليصل إلى الجهة المقابلة، ثم العودة بطول كل تلك المسافة ليدخل إلى الشارع الذي يقصده.. أدرك أنه إن استمر فلن يسعفه الوقت أبدًا.. اتخذ قراره ودون تفكير نفذه فورًا صائحًا:

- مَبدهاش بقى.. الطُف يا رب.

دار حول زاوية الشارع وغيَّر سرعته فجأة وصعد بالسيارة فوق الرصيف في مُنتصف الشارع بالضبط وهبط ثم انطلق في الاتجاه المُعاكس.. انحرفت إحدى الشاحنات أمامه وأطلق سائقها نفيره فتجاوزه بصعوبة بينما صاح في وجهه رجل بسباب غاضب كان يقود سيارة ملاكي أخرى؛ حتى يبتعد عن الطريق، لكنَّه واصل.. لاحت أمامه ناصية الشارع الذي توجد المستشفى في نهايته.. زادت دقات قلبه وتنفس الصعداء قائلًا:

- ألف حمد وشكر ليك يا رب.

دخل في الشارع، فوجد صفوف السيارات مُتراصة أمامه على مدى البصر بلا حدود وإشارة المرور مُغلقة.. الموقف كان غريبًا بالنسبة للتوقيت والازدحام الغير مُبرر.. نزل مسرعًا من السيارة، وسأل بانفعال قائد أقرب سيارة بجواره:

- فيه إيه قدام؟

- الريس معدي فوقفوا الطريق.

- الطريق كمان!.. مش كفاية حالنا واقف.

- معاك حالة ولا إيه؟

أومأ حسن برأسه إيجابًا في مرارة، فقال الرجل:

- اطلع كلم الضابط هتلاقيه واقف قدام يمكن يرضى يعديك.

ترك السيارة وأخذ يعدو باتجاه الضابط.. بدأ حذائه يؤلمه، فخلعه وواصل العدو عاري القدمين.. استوقفه صفٌ من العساكر حاول أن يتجاوزه مُتحدثًا مع أحدهم وهو يلهث:

- هقول للباشا كلمة بس.

- سيبه يا ابني.

هتف بها الضابط الواقف خلف الصف فأفسح العساكر الطريق عبر حسن إلى الضابط الذي نظر بتأفف وريبة إلى هيئته وسأله:

- إنتَ مين وعايز إيه؟

- أنا سوّاق إسعاف المستشفى اللي قدام دي ومعايا حالة متأخرة.

- والمطلوب؟

- تعدينا بس يا باشا.

رد الضابط بسُخرية:

- أعديـك إزاي بـس يـا ابنـي إنـتَ أعمـى!.. الطريـق متقفـل يمـين وشـمال بالضبـة والمفتـاح.. ده وزيـر الداخليـة مَيقـدرش يفتحلـك الإشـارة.. الموكـب هيعـدي بعـد دقيقتـين.

- الست بتموت يا باشا.

مط الضابط شـفتيه وأشـار بيـده دليـل قلـة حيلـة.. عـاد حسـن راكضًـا إلى السـيارة مـرّة أخـرى.. كان العجـز والمـرارة يمـلأن رئتيـه، وشـعر أن أنفاسـه تخـرج منـه بصعوبـة.. قبـل أن يصـل إلى السـيارة سـمع صرخـة ملتاعـة مدويـة تصـدر مـن داخلهـا:

- ماما.

قفـز المسـافة المُتبقيـة وفتـح البـاب الخلفـي للسـيارة.. وجـد الأم تنتفـض في عنـفٍ بـين يـدي ابنهـا ويخـرج سـائل رغـوي أبيـض مـن فمهـا.. فجـأة أرخـت قبضتهـا المُمسـكة بيـد الطفـل، ثم تهـاوت يدهـا إلى جانبهـا مـرّة واحـدة.. ارتـد الطفـل؛ حتـى اصطـدم ظهـره بجـدار السـيارة.. ارتعـش وكتـم فمـه بيديـه المُرتعدتـين.. عَـضَّ حسـن طرف البـاب بأسـنانه في قـوةٍ وهـو يتابـع وشـعر بسـخونة الدمـوع التـي انسـابت عـلى وجهـه.. جلـس في وضـع القرفصـاء عـلى الأسـفلت وضـم ركبتيـه إلى صـدره بذراعيـه مغمضًـا عينيـه، وأخـذ يخبـط مؤخـرة رأسـه بضربـات منتظمـة عـلى بـاب السـيارة مـن الخـارج.

(١٥)

كشف طبى

تابعت (نرمين) بمُنتهى الاهتمام من شُرفة غرفتها سيارة الإسعاف وهي تنقل جارتها، وبعد أن انصرفت السيارة، تسللت عائدة على أطراف أصابعها إلى السرير مرة أخرى بهدوء؛ حتى لا توقظ زوجها الذي كان يَغُطُّ في نومٍ عميق أو هكذا كانت تظن.

(هاني) خريج كلية الحقوق بتقدير جيد جدًا وابن الأستاذ الجامعي المرموق عميد نفس الكلية والمُرشح بقوة لوزارة التعليم العالي.. أصرَّ والده على تزويجه منذ السنة الدراسية الثانية، فالتقدير مضمون وبالتالي الوظيفة بعد ذلك.. كان زواجًا أقرب إلى الصفقة.. (نرمين) بنت العائلة العريقة، ذات النفوذ المُتشعب في الدولة و(هاني) ابن صاحب الوضع الاجتماعي والأملاك ونصف المساحة الزراعية تقريبًا في إحدى محافظات الدلتا.. صفقة رابحة لكلا الطرفين.. كإجراء طبيعي بعد انتهائه من الكلية تقدم هاني إلى اختبارات السلك القضائي كمُعاوِن للنيابة.. بقليل من التوصيات من معارف والده وعَمّ زوجته.

بـدا وكأن الحلـم في طريقـه إلى التحقـق.. اجتـاز كل الاختبـارات وبقـي الكشـف الطبـي.. بمُجـرَّد دخـول زوجتـه إلى جـواره في الفـراش اعتـدل وجلـس عاقـدًا ذراعيـه أمـام صـدره.. انتفضـت زوجتـه لرؤيتـه مُسـتيقظًا، فسـألها بصـوتٍ يقـظ وعـين سـارِحة:

- خير.. الإسعاف كانت جايه لمين؟

- إنتَ صاحي يا حبيبي؟.. أنا فاكراك نايم!

- ومين يجيله نوم؟

- دي السـت ثُريّـا الـلي في الأول جُـم نقلوهـا شـكلها تعبـت جامـد.

سـمعها ولم يُعقِّـب ومـازال سـارحًا.. اقتربـت منـه وسـألته في دلال:

- ما نمتش ليه؟

رد في سرعة:

- قلقان يا نرمين.

رَبَّتت على كتفه في حنية وقالت:

- مش أونكل جِـالي طمنـك وقالـك دي كلهـا شـكليات وإنـك داخـل داخـل.

هَزَّ رأسه مُؤمِّنًا على كلامها، ورد وهو يفرك كفّيه في توتر:

- سـيادة المُستشـار لـه كلمـة وكلمـة مسـموعة كـمان.. لكـن برضـه مـش ده بـس كل الـلي يقلـق.

- يعنـي عديـت ده كلـه وجـاي تقلـق دلوقتـي في أتفـه حاجـة..

الكشف الطبي!

- هو أصلًا كشف روتيني مَلوش أي تلاتين لزمة.. حتى ميعاده ٨ الصبح في نفس يوم إعلان النتيجة النهائية للمقبولين، لو مهم كانوا هيخلوه يوم لوحده على الأقل.

- طب فين المشكلة.

يتردد لحظة، وكأنه يزن الحروف قبل نطقها، ثم يُلقيها مرة واحدة:

- اختبار البول.

- نعم!

- المُصيبة لّما يطلبوا العينة يا نرمين.. أنا لّما بكون متوتر مَبعرفش أنزل نقطة حتى.. ده لو هيسيبوني ساعة مش هقدر، أنا عارف نفسي.

اعتدلت مرّة أخرى في جلستها، وقد أفاقتها كلماته، وقالت في دهشة:

- معقولة للدرجة دي الموضوع صعب عليك.

يدفن وجهه بين كفيه، ويقول بصوتٍ مُختنق:

- وأكتر كمان.. إنتي مش مُتخيلة.

سحبت رأسه على كتفها وطبطبت عليه، ثم همست في أذنه:

- لأ مُتخيلة ومُتأكدة إنك هتعدي منها.

يرفع رأسه وينظر في عينيها ويقول:

- لازم نشوف حل يا نرمين.. هتفضح.

برقت عيناها لحظة وبدا أن أمرًا ما يدور في ذهنها، فابتسمت وشدت الغِطاء على جسده بحنان وقالت:

- محلولة والله يا حبيبي مَتقلقش.. بس نام دلوقتي، وقادر ربنا يحلها من عنده.

هدأته كلماتها نسبيًا وبصعوبة بالغة استسلم للنوم.. وظلّت هي مُستيقظة تُدير الأمر في رأسها ومع بزوغ أول خيوط الشمس كانت الفكرة التي تداعب عقلها قد اختمرت تمامًا.. ساعتان من النوم القلق لم تشفعا له في الحصول على مزاج ووجه رائق، فقام مُتفخ العينين من كثرة السهر.. وجد زوجته وقد أعدت له طعام الإفطار، لكنه لم يقوَ على وضع أي شيء في جوفه.. ارتدى بدلةً كاملةً أنيقة تليق بجلال وهيبة الموقف، فلو سار اليوم كما يتمنى سيتم إعلانه اليوم وكيلًا للنائب العام.. نظر إلى المِرآة ليعدل من وضع رباط العنق المربوط بإحكام، ثُمَّ تأكد من نظافة حذاءه جيدًا.. طبع قبلة على خدها واتجه نحو الباب.

- خلاص نازل يا حبيبي؟

أجاب بصوتٍ يُغالبه التوتر:

- آه.. ادعيلي.

- ناجح إن شاء الله.

قالتها ثم ناولته كيسًا رفيعًا مُغلقًا بإحكام به سائل أصفر فاتح.. أمسكه ونظر إليه ثم فَغَرَ فاه في دهشةٍ وقال:

- إيه ده؟!

- خمّن.

فكر لحظة، ثم قال:

- اوعي تكوني...

قاطعته بإيماءة من رأسها إيجابًا، وقالت في حماس وهي تغمز بعينها:

- أيوا هو اللي جه في بالك بالظبط.. عيب عليك.. مراتك حبيبتك مش سهلة.

- يخرب عقلك

واصلت بنفس الحماس:

- ده بقى تخبيه جوه هدومك ولمّا تدخل التواليت عشان تديهم العينة فضيه جوه الأنبوبة اللي هيدوهالك.

قلب الكيس في يده غير متمالك لمشاعره التي تأرجحت بين الانفعال والدهشة، فسألها بقلق:

- تفتكري هتخش عليهم.

أجابت بثقة:

- مفيهاش كلام أصلًا.. إنتَ بس خبّي الكيس كويس.

هَزَّ رأسه، ثم احتضنها وقبَّل رأسها ويديها وغادر المنزل وفي رأسه هدف واحد فقط.. تنفيذ فِكرة زوجته.

في نهاية اليوم أُعلنت أسماء المقبولين وكان من بينهم اسم هاني، لكن مع علامة باللون الأزرق فوق الاسم وكلمة صغيرة بين قوسين بجواره.. (استدعاء).. لحظات ووجد هاني نفسه

واقفًا أمام لجنة المستشارين السبعة التي أصدرت قائمة أسماء وكلاء النيابة الجُدد.. تهامس ستة مستشارين فيما بينهم بصوتٍ خفيض بينما أخذ أوسطهم يُقلِّب الورق الذي أمامه في تتابعٍ دون أن ينظر إلى هاني قائلًا له:

- هاني.. الحقيقة إنك نموذج مثالي نقدر نقول عليه فعلًا مَفيكش غلطة.. التحريات نضيفة.. السمعة وحُسن السلوك فوق الشُّبهات.. كشف الخمور والمخدرات ممتاز.. الصحة تمام.

تنتفخ أوداج هاني فخرًا وترتسم على وجهه ابتسامة ثقة عريضة قائلًا بارتياح:

- الحمد لله.

يضع المستشار الورق جانبًا ويخلع نظارته الطبية، ثم يواصل:

- والحقيقة إن اللجنة النهارده بالإجماع علقت نتيجتك وطلبت تشوفك عشان حاجة تانية خالص.

رد بتوتر مشوب بالقلق:

- خير يا فندم؟

نظر المستشار إلى باقي المستشارين حوله، وتبادلوا نظرات حرِجة قبل أن يستجمع الأوسط شجاعته ويلقيها في وجه هاني مرّة واحدة في ريبة:

- هاني.. هو إنتَ إزاي حامل؟!!

(١٦)

أول مرة*

- عاوز ألعب الماتش يا كابتن.

- مش هينفع يا رامي.. حالتك النفسية زي الزفت وهتأثر على لعبك، ومستواك مكنش كويس آخر تدريبين.

- الله يخليك جربني يا كابتن أنا حاسس إني هـ.....

يُقاطعه في قوة:

- خلصنا يا رامي.. الله!.. أنت هتكون في الاحتياطي انتهينا بقى.

يخرج رامي مُنكّس الرأس من غرفة اللاعبين، تعلو وجهه أمارات الحزن والانكسار.. يميل مساعد المدرب على أذن المدرب هامسًا له في عتاب:

- كنت خلّيته يلعب يا كابتن.

---

* (عن قصة حقيقية على لسان تشوك دودج)

- أنا بعمل كده عشان مصلحته ومصلحتنا كلنا.. الولد مُنهار من ساعة وفاة أمه أول امبارح، وده ماتش نهائي مَينفعش أخاطر وأخليه يلعب.

بدأت مباراة كرة القدم في نهائي بطولة الشباب ١٢ عام بين فريق رامي والفريق الآخر بحماسة من الفريقين استمرت لنصف الشوط الأول، قبل أن يُسيطر الفريق الآخر على مُجريات الشوط تمامًا ويترجم السيطرة إلى ثلاثة أهداف مُتعاقبة، صَعَّبت من مُهمة الفريق الأول.. مع نهاية الشوط الأول ودخول الفريق لغرفة الاستراحة، بدأ اليأس في عيون الجميع ووسط كومة الانهيار المعنوي لم تُسعف كلمات المدرب إعادة شحن بطاريات حماسة لاعبيه، أو حتى تنتشلهم من هذه الحالة، التَفَت المدرب في تلك اللحظة إلى رامي الجالس في ركن الغرفة ووجهه في الأرض، ويبدو أن المدرب يفكر في أمرٍ ما، سرعان ما ترجم التفكير لنداءٍ حاسم:

- سَخَّن يا رامي.. هتنزل الشوط التاني.

انتفض الفريق مع انطلاق صافرة الحكم وبداية الشوط الثاني، وانتقلت السيطرة بشكلٍ لافِت لفريق رامي خصوصًا بعد مشاركته.. لم يكن رامي من لاَعبي الصف الأول في الفريق، كما أن مستواه لم يكن يسمح له بالتواجد بقائمة المباريات الأساسية إلّا مرات قليلة، لكنه وبُمجرد نزوله في هذه المباراة لعب كما لم يلعب من قبل، وكأنه شخصًا آخر غير الذي عرفوه وسط انبهار مُدربه وزملائه.. تَعَملَق فجأة.. سجل الهدف الأول.. ثم صنع الثاني.. ثم سجل الثالث.. تساوت الكفتان واقتربت

المباراة من نهايتها، وقبل أن يُعلن الحكم نهاية المباراة عرقل أحد مُدافعي الفريق الآخر مُهاجم فريق رامي، فاحتسب الحكم ركلة جزاء تصدّى لها رامي مُحرِزًا هدف فريقه الرابع.. انتهت المباراة.. حالة فرحة هيستيرية اجتاحت كل طاقم الفريق ووسط الأحضان والقبلات والأجساد المُتلاحمة، اخترق رامي الحشود بحثًا عن مدربه، فوجده مُنشغلًا بالاحتفال مع باقي زملائه.. تلاقت أعينهما.. اقترب رامي منه وقال له في قوةٍ لا تتناسب مع سنوات عمره:

- أنا كنت عارف يا كابتن عشان كده قولتلك نزلني.

نظر إليه المدرب بخجلٍ واقترب منه، ثم احتضن رأسه وقال:

- حقك عليّا.. إنتَ عملت كده إزاي؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة، ثم أجاب والدموع في عينيه:

- ماما الله يرحمها كانت عامية.. مَبتشوفش.. والنهاردة كانت أول مرة هتتفرج عليّا من الجنة وأنا بلعب.

ترك رامي مدربه غير عابئًا بعلامات الذهول التي ارتسمت على ملامحه بعد عبارته الأخيرة وغادر الملعب وهو يدرك أنه الآن تحتم عليه أن يكون وحيدًا.. أكثر قوة.. وصارت ضحكته أكثر اتساعًا وإشراقًا.

(١٧)

ميموري كارد

في ذلك الحي الشعبي العتيق، وعند مدخل ورشة الزجاج الكبيرة نسبيًا، وتحت لافتة ضخمة مكتوب عليها بحروف يعلوها الصدأ وعوامل الزمن (ورشة زجاج مدبولي وأولاده)، وقف (كرم) الابن الأصغر للحاج (مدبولي) مشغولًا في تنسيق لوح سيارات زجاجي خلفي لأحد الزبائن الواقفين أمامه. يستعجله الزبون في استجداء:

- شهّل والنبي شوية يا كرم عشان الباشا مستعجل.. مَكنش لوح إزاز ده اللي هتفيّمه.

يهمّ بإلقاء لوح الزجاج الذي بيده على الأرض ويرد بعصبية:

- بقولك إيه الباشا بتاعك ده يستعجل على نفسه.. أنا مَبحبش أعمل شغل صربعة.. مش عايز حِس لحد ما أخلص ولا نفُضَها سيرة خالص؟

- معلش يا كرم.. وكيل نيابة جديد بقى وحقه يترسم.

لمح كرم أخته تخرج مُسرعةً من باب منزلهم المواجه للمحل،

فترك ما بيده والزبون وأسرع نحوها وبادرها:

- على فين يا بت يا تُقى؟

- ملكش دعوة يا كرم، أنا قايله لأبوك، وبعدين إنتَ مش هتفتح لي محضر كل يوم.

يُمسك كرم بذراعها ويلويه خلف ظهرها بشدة تجعلها تصرخ بصوت عالٍ، وقال:

- دا أنا مش هفتح لك محضر وبس، دا أنا هفتح دماغك كمان لو مَتجرتبش طلعتي على فوق دلوقتي.

- ااااى.. الحقني يا آبا.

يدوي صوت والد كرم المعلم مدبولي في المكان بقوة:

- كرم..

تُفلت تُقى ذراعها من يد أخيها، ثم تجري باكيةً نحو والدها، الذي خرج من الورشة على صرخة ابنته، وكرم يجرى ورائها محاولًا اللحاق بها هاتفًا:

- إنتي مِفكَّرة إن أبوكي هيحوشني عنك.

وقف مدبولي حائلًا بينهما، واحتوى تُقى الخائفة تحت ذراعه، ونظر بعنفٍ إلى ابنه:

- اخرس يا زفت.. فيه إيه يا تُقى؟

- أنا مش قولتلك امبارح يا آبا إني رايحه لـ سعاد عشان حنة أختها وإني مش هعوّق.

- حصل.

- يبقى قول لسبع البرومبه ده اللي عاملي سبع رجاله في بعض بحل عني بقى أنا تعبت.

يُربت مدبولي على كتف ابنته بحنان، وينظر بطرف عينيه إلى كرم، ثم يلتفت لابنته:

- خلاص يا بت.. روحي لصاحبتك، بس مَتعوقيش زي ما اتفقنا.

- حاضر يا آبا.

تقولها وهي تمسح دموعها، وتتحرك في سرعة، فيستوقفها والدها:

- استني يا بت.. عايزة فلوس؟

تبتسم وتنظر في الأرض دون أن ترد، فيمد يده في جيب قميصه العلوي، ويُخرج منها عدة أوراق يناولها لها.

- خُدي خلّي دول معاكي.. مَيصحش تدخلي على الناس بإديكي فاضية.

تُمسك النقود وتطبع قبلة حانية على خد مدبولي، وتُخرج لسانها لكرم الذي يضرب كفًا على كف.. تجري تُقى مُبتعدة فرِحة كالأطفال.. يعود مدبولي إلى القسم الثاني لورشته مرّة أخرى ويواصل عمله أمام ماكينة نشر الألواح الزجاجية.. يتبعه كرم ويقف بجواره وعلى وجهه أمارات الغضب.. يلمحه

مدبـولي وهـو مُنهمـك في العمـل، فيقـول دون أن يرفـع نظـره إليـه:

- بالمداوة على أختك شويه يا دوُغف مش كده.

- يـا آبـا والله مـا هيضيـع البـت دي غـير دلعـك ليهـا، ومَيـنفعـش برضـه تخرج يومـاتي بالأربـع خمـس سـاعات وترجـع متأخـرة كـده، النـاس هتـاكل وشّـنا.

يلتفت إليه مدبولي ويقول بعصبية:

- قطـع لسـان أي كلـب يجيـب سـيرة بتتـي.. أنـا مشـيت مـرّة ورا كلام عيـل زيـك لّمـا خلتنـي أرفـض الـواد زميلهـا الـلي جـه اتقدملهـا ومـش هكررهـا.

- يعنـي يـا آبـا كنـت عايزنـا نجوزهـا لحتـة واد عواطـلي مَنشـغلوش صبـي عندنـا؟!

يُشيح بيده مُحذرًا:

- قُـصر الـكلام.. أهـو الـلي حصـل حصـل وقفّـل عـلى السـيرة دي في نهـارك الـلي زي وشـك، وأمـا أبقـى أمـوت ابقـى اعمـل الـلي إنـت عايـزه.

تغـيرت لهجـة كـرم وهـدأت نـبرة صوتـه، وقـال بـودٍ مُقتربًـا مـن والـده:

- بعـد الـشر عنـك يـا آبـا.. أنـا عايـزك تعـرف إن غـرضي المصلحـة.

- يـاض يـا عبيـط دي أختـك الوحيـدة ومَلكـوش غـير بعـض

وكفاية كسرناها مرّة قبل كده.

بدا على كرم عدم الاقتناع، فسحبه مدبولي من ياقة قميصه ليُقربه إليه، وتناول قطعة من الزجاج الذي نشره للتو ووضعها أمام وجه ابنه، وقال:

- يا أسطى يا فاهم .. يا متنور .. يالّلي معاك شهادة .. أي بت في الدنيا عاملة زي حتة القزاز، أقل حاجه تبان فيه على طول.. شرخ.. وجع.. كسر.. لا مؤاخذة وساخة .. فهمت يا حمار.

- ماشي يا آبا.

يُزيحه مدبولي بيده:

- غور يالّا روح شوف وراك إيه وكفاية عَطَلة لحد كده.

يندمج كرم مرّة أخرى فيما كان يفعله في الورشة، مُقدمًا اعتذارًا غير مُهذب للزبون الذي تركه منذ قليل.. لم تمضِ ثوانٍ حتى اقترب شاب ثلاثيني من كرم، الذي ما إن لمحه حتى ترك ما بيده للمرّة الثانية وسط ذهول الزبون، واتجه نحو الشاب ليسحبه جانبًا ويهمس له:

- لسّه فاكر يا روح أمك؟

يبتسم الشاب ابتسامة لزجة ويقول:

- وليه بس أمّك ومش أمّك والسكة دي؟.. الأول صباحو يا كبير.

- اخلص.. معاك جديد؟

يهز الشاب رأسه، ثم يُخرج كارت ميموري موبايل من جيبه، ويغمز بعينيه ويُجيب:

- وأي جديد.. حاجة ألاجه مَتلقيهاش غير بس عند حمو.

يميل عليه ويواصل هامسًا:

- وعربي كمان.

- فُل عليك يا حمو.. طب هات.

- هات إنتَ الأول.

يُناوله ورقة نقدية يُمسكها الثاني بلهفة:

- يا ساتر مش بتسيب حقك أبدًا.

يبتسم ويرد:

- تلميذك.

يخطف كرم كارت ذاكرة الموبايل منه، ويمسك كنزه الصغير في حرصٍ ويُوصي أحد الصبية باستكمال العمل الذي كان يقوم به، ثم يُنادي على والده المُنهمك في عمله:

- آبا أنا رايح القهوة خمسة كده في السخان وجاي.

في ذلك الركن المُنزَوِي من القهوة، جلس كرم مُمسكًا بالموبايل بعد أن دسَّ فيه الميموري كارد ويبدأ في تشغيل الفيديو ليُشاهد الفيلم الإباحي الذي اعتاد أن يأخذه كل فترة من حمو.. يبتاع

الواحـد منـه بعشريـن جنيـه.. كان يدفعهـا عـن طيـب خاطـر، فأفلامه دومًـا فيهـا مـا يُميزهـا ويبحـث عنـه دونًـا عـن كل المُحتـوى الـذي تعـجُّ بـه الشـبكة العنكبوتيـة.. كان واضحًـا أن الفتـاة في الفيديـو لا تعلـم لا هـي ولا الشـاب الـذي معهـا أن هنـاك مـن يُصـور لقاءهما.. أخـذت تتمايـل وتتراقـص بـدلال عـلى نغـمات الموسـيقى المُنبعثـة مـن الكاسـيت المُلقـى بجوارهمـا.. أخفـت سُـحب الدخـان المُنتـشرة في الغرفـة ملامحهـا وكـذا ملامـح رفيقهـا، ولكنهـا أظهـرت تضاريـس جسـدها الشـاب الفائـر.. تصاعـدت أنفـاس كـرم مُحملـةً بدخـان سـيجارة الحشـيش التـي يُمسـكها بيـده، وتصاعـد معهـا تركيـزه أكثـر.. عَـدَّل كـرم مـن وضـع بنطالـه.. دارت الفتـاة دورةً سريعـةً عـلى أنغـام الموسـيقى.. فظهـر وجههـا لجـزء مـن الثانيـة، التـي كانـت كافيـة ليُـدرك شـخصيتها.. أختـه تُقـى.

(١٨)

بورتريه

بِضع ساعات من المُتعة الحرام لا تتجاوز الثلاث، اعتاد أن يخطفها (عماد) مع حبيبته (تُقى) في شقة زميله، التي تقع على أطراف القاهرة.. غير أنهما في ذلك اليوم تحديدًا لم يشعرا بنفسهما إلّا بعد مرور ٥ ساعات كاملة، غيّبتهم فيها لحظات النشوة الممزوجة بدخان الحشيش وزجاجات الخمر الرديء، الذي اعتادا أن يحتسياه.. فاقت على صوت هاتفها الذي رن في إزعاج.. رأت اسم أخاها على الشاشة فانتفضت وأدركت ما هما فيه من كارثة.. تأخرت على منزلها وتأخر عماد على عمله في أتيليه بحي الزمالك.. أيقظته وارتديا ملابسهما على عجل.. أوصلها إلى أقرب نقطة تستطيع أن تركب منها واطمأن عليها، ثم ألقى بنفسه داخل أول ميكروباص وجده أمامه.

- طيبة أوي تُقى.

قالها لنفسه مُبتسمًا ومُسترجعًا حديثه مع والدتِه عنها منذ عدة أشهر قبل أن يتقدم لخطبتها.. حينها أصرت والدته على

عـدم الذهـاب معـه قائلـة:

- إنـتَ مـش عـارف إنـتَ رايـح تخطـب بنـت مـين!.. عـلى قـد لحافـك مـد رجليـك.

بينـما يُواصـل النـاس التوافـد عـلى السـيارة شـيئًا فشـيئًا أغمـض عينيـه وتذكـر.. لايـزال مشـهد طـرده مـن منزلهـا عندمـا تقـدَّم إلى والدهـا عالقًـا بذهنـه ويُطـارده بقسـوة.

- رسّام إزاي يعني؟

هكـذا سـأله والدهـا وأخوهـا، ولم يسـتطع أن يـرد عليهـما، وخرج يجـر أذيـال الخيبـة.. كل مـا يتذكـره بعدهـا إصرارهمـا أن يتقـما هـو وتُقـى سـويًا مـن الظـروف، وأن يحصـلا عـلى مـا حُرمـا منـه رغـمًا عـن الجميـع.. الغريـب أنهـما كل مـرة وبعـد كل لقـاء كان ينتابهـما شـعور بالنـدم ورغبـة حقيقيـة في عـدم تكـراره، إلّا أنهـما كانـا يضعفـان ويواصـلان.. تـرك نفسـه مـع الأحـداث حتـى انتبـه أن السـيارة كانـت قـد تحركـت بالفعـل منـذ لحظـات.. راقـب سرعتهـا البطيئـة ونظـر إلى سـاعته، ثـم إلى السـائق:

- ما تشد شوية يا اسطى.

- يعني هطير يعني يا بيه.. ما السكة واقفة قدامك أهي!

سـيدة عجـوز تتشـح بالسـواد تجلـس بجـواره وجّهـت كلامهـا إلى السائق:

- والنبـي يـا ابنـي مَتنسـاش تنزلنـي قـدام العربيـات اللي رايحـة السـكة الحديـد عشـان أركـب لــ بورسـعيد أحسـن بتلخبـط كل مرّة.

- حاضر يا ست.. قولتلك قبل كده حاضر..

نظر عماد إلى يساره متأملًا ملامح السيدة.. فلاحة مُسنة بسيطة تُشبه أمه كثيرًا تُمسك مَسبحة بين أصابعها تقلب بين حباتها في رتابة مُتمتمة بصوت خفيض.. ارتاح للطيبة التي تطل من عينيها، وأراد أن يهوِّن عليها وعلى نفسه طول المسافة، فسألها بابتسامة:

- إنتي رايحه بورسعيد يا أمي؟

- أيوه بالسكة الحديد وهركب من هناك أجرة للعريش.. رايحة أزور ياسين ابني ربنا يحميه لشبابه أصله في الجيش.

- بس مشوار علقة عليكي ده؟

- يوه.. وإحنا إن مَكنّاش نتعب عشانكم هتعب لمين؟

- ربنا يخليهولك ويوفقه ويرجعه بالسلامة.

- تعيش يا حبيبي.

يتدخل السائق في الحديث ناظرًا إليهما في المرآة التي أمامه:

- بس كويس والله إن لسّه فيه ناس بيروحوا الجيش.. اللي يقبل يخش الجيش برجليه دلوقتي يبقى عليه العوض.. دا أنا تلات تربع أصحابي مزوّغين منه.. أنا نفسي مزوّغ.

قالها بتلقائية أضحكت كل من في الميكروباص ماعدا أم ياسين التي قالت في أسى:

- لأ إزاي!.. غلطان من ساسك لراسك.. إنتَ بتحمي بلدك

وأهلك مش الكُبارات.

رد السائق في استنكار:

- دي مش بلدنا يا ست دي بلدهم هما.. شوفنا إيه منها.. دول عالم ولاد كلب.

- بس يا وله يا قليل الرباية.

ينظر السائق إلى الخلف غاضبًا:

- الله الله جرا إيه يا ولية إنت هتلبخي ولا إيه.. مَتيجي تاخديني قلمين أحسن.

تُشمِّر أم ياسين عن ساعدها الأيمن وتهتف بانفعال:

- وماله.. لا إنتَ كبير عليها ولا أنا صغيرة عليها.

يُمسك عماد بيدها، ثم يرمق السائق بنظرة عتاب مُحذرًا، ويقول:

- جرى إيه يا اسطى زي أمك برضه.. هترد عليها!

- إنت مش سامع يا عم!

- خُلصنا يا اسطى بُص لطريقك بقى الله يسترها عليك وعلينا.

- أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

يُقبِّل عماد رأسها في حنيَّة:

- حقك عليَّا أنا يا أمي.

- شفت الواد وطولة لسانه.

- خلاص بقى صلي على النبي.

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

يُحاول عماد أن يُغيّر دفة الحوار تلطيفًا للجو، فيسألها بمرح:

- وجَوزتي ياسين ولا لسه؟

ترد في حماس:

- عروسته موجودة.. بنت عمه.. أومال إحنا مَتجوزش من برّه العيلة.. يخلّص هو بس ويرجع ونكتبله على طول.

يتحدث السائق مع من بجواره بسخرية مُشيرًا برأسه إلى الخلف عليها في محاولةٍ لاستفزازها:

- زعلانة عشان بقول ولاد كلب؟.. لأ ولاد ستين كلب كمان.. سواء دول ولا دول وإحنا اللي معجونين في الخرا بينهم.. فوقي بقى.

تعجز أم ياسين عن الرد ويبدو الألم على وجهها.. يرن هاتف السائق فجأة، فينشغل بالرد عليه ويستمع بإنصات إلى مُحدِّثه على الطرف الآخر وتتبدل ملامحه.. توجه أم ياسين حديثها إلى عماد مُشيرة على ما بيده:

- إيه اللي أنتَ شايله ده؟

- ده ورق وده تابلت بشتغل عليهم.

- بتشتغل إيه؟

- رسّام.

تتهلل أساريرها:

- بتعمل تصاوير؟

يبتسم ويشير بيده إشارة تقريبية:

- يعني حاجة زي كده.

تُمسك بيده وتضغط عليها وتقول بفرحة:

- مَترسملي ياسين تصويرة حلوة عشان أبعتهاله.

يرد بدهشة:

- تبعتيهالوا فين يا أمي إنت مش رايحاله دلوقتي!

- لأ ما هو ربنا افتكره في رمضان اللي عدّى.

مصدومًا:

- مات؟!

- استشهد.

تجمدت الدماء في عروقه، وتلعثمت الكلمات على شفتيه:

- رمضان الـ... هو كان من الـ... اللي قتلوهم ساعة الفطار في الـ... وهما بيـ...

واصلت وكأنها لم تسمعه:

- أنا بقى اتعودت أول خميس من كل شهر أعمل إيه..

أروح أزور زُملاتـه هنـاك، وأوديلهـم زيـارة مُعتـبرة تـرُم عضمهـم.. أومـال.. مـا همـا وياسـين واحـد.. كلكـم واحـد يـا ولـه وأيامكـم صعبـة ربنـا يعينكـم عليهـا.

لم يتمالـك عـماد دموعـه التـي انسـابت عـلى وجهـه النحيـل رغـمًا عنـه:

- ها قُلت إيه؟

أخرجته من صمته بسؤالها فأجاب بسرعة:

- قلت إيه في إيه يا أمي؟

- هتعملي تصويرة لياسين؟

- معاكي صورة له؟

- وشايلاها جنب قلبي، عشان يسمع صوتي وأنا بدعيله مع كل نفس طالع.

قالتهـا وهـي تُخـرج حافظـة سـوداء باليـة مـن صدرهـا وتفتحهـا وتلتقـط مـن داخلهـا صـورة مُمزقـة الحـواف وتُعطيهـا لـه.. بـلا تفكير أخرج قلمه من الحقيبة وقلّب صفحة كراسة الرسم على صفحة بيضاء جديدة وأمسك صورة ياسين وشبكها أعلى يسار الورقة بدبوس.. استغرق بكل جوارحه وانهمك في الرسم.. أخذ على عاتقه هدفًا، أن ينتهي من تلك الصورة قبل نزولها من السيارة.. كان يُسابق الوقت؛ لرغبته أن يُساهم ولو بقدرٍ ضئيل في إسعادها.. وبعد تقريبًا نصف ساعة قطع الورقة من الكراسة ومد يده إليها بها:

- اتفضلي يا أمي.

تُمسكها وتتأملها في إعجاب:

- سلِّم إيدك يا ضنايا.

في نفس اللحظة تقف السيارة ويقول لها السائق شاردًا:

- عربيات رمسيس هناك أهي يا ست تركبيها هتنزلك قدام باب المحطة.

- ماشي يا ابني.. تعيش يا حبيبي.

تُمسك بالورقة في يدها، فيفسح لها عماد من على يمينه الطريق كي تنزل.. تحمل قُفّة ضخمة على رأسها بمهارة، وتسحب كيس أسود كبير بيدها اليُسرى، وعندما يُحاول عماد أن يُساعدها ترفض قائلة:

- أنا شديدة ولسّه بصحتي يا وله.

- ربنا يديكي الصحة يا أمي.

تهمّ بالانصراف، ثم تقف وتهتف في عماد:

- بقولك..

- أؤمريني.

تُناوله الورقة التي رسمها منذ قليل وهي تبتسم:

- خُدها.

أمسك الورقة بأصابع مُرتعشة وقلبه يخفق في قوة دون أن

بـرد.. واصلـت مُبتسـمة وهـي تنظـر في عينيـه مُبـاشرة:

- خلّيهـا معـاك.. إنـتَ أولى بيهـا منّي.. خـلّ بالـك عـلى ياسـين أخـوك.

واصلـت طريقهـا.. عـاد إلى مقعـده بجـوار النافـذة يتابعهـا وهـي تبتعـد.. بـدت لـه جبـلًا شـامخًا يـضرب عـلى الأرض بثبـات يـزداد ارتفاعًـا كلـما بعـد.. رآهـا أعظـم امـرأة وأقـوى كائـن في الوجـود.. نقّـل بـصره بينهـا وبـين الورقـة المـستقرة في يـده مُتأمـلًا ملامح ياسـين المرسـومة..مع التركيـز في تفاصيـل الوجـه لاحـظ الشـبه بينـه وبـين ياسـين.. عـادَ ببـصره إلى أم ياسـين لكنهـا كانـت قـد اختفـت.

(١٩)

واحد ميدان لبنان

منذ تلقّيه المكالمة الهاتفية التي استقبلها منذ قليل وبعد ما بلغه من خلالها، بدا سائق الميكروباص لكل الركاب شاردًا ومُنفصلًا عن الواقع بشكلٍ أو بآخر.. سيطر الوجوم على ملامحه الحادة مما أكسبه مع أثر الخِياطة الجراحية الرديئة لضربة المِطواة بمنتصف خده، مظهرًا عدوانيًا.. أطفأ الكاسيت.. شخصت عيناه تنظران إلى الطريق في قلق.. بين أصابع كفّه الأيسر يُمسك بسيجارة يُدخِّنها بتوتر بشع، ويقبض باليُمنى على عجلة القيادة في قوة.. قدمه تضغط دواسة الفرامل في آلية بمُجرد سماع (على جنب يا اسطى).. خط سيره الأساسي من الحي السادس في أكتوبر إلى الحُصري، ثم إلى ميدان لبنان (٣ محطات).. في نصف المسافة تقريبًا وتحديدًا عند هايبر ماركت نزل ٤ ركاب.. كان المُفترض أن يواصل السائق طريقه بعدها مُباشرةً لكنه ظل متوقفًا، كأنما يُفكِّر في أمرٍ ما.. تعجب أحد الركاب من وقوفه، ووجه إليه حديثه:

- ما يالّا يا اسطى، محدش هيخليك تحمل من هنا!

تجاهل السائق كلماته تمامًا، وبدا وكأنه قد حسم ما كان يدور في رأسه.. أبطل ماتور السيارة ونزل منها مُناديًا:

- واحد ميدان لبنان.. واحد ميدان لبنان.

مَصمصِت إحدى السيدات في الميكروباص شفتيها، وهمست لمن يجلس بجوارها:

- شوف الراجل مش هاين عليه يطلع وهو ناقص أربع أنفار.. عالم معفنة.

يهتف راكب ثانٍ:

- أنا كده هتأخر.

يُخرج ثالث رأسه من الشباك المُجاور ويُخاطب السائق:

- ورانا مصالح يا اسطى الله يرضى عنك.

واصل تجاهله لأصوات الركاب المُتذمِّرة، واستمر في مُناداته.. اقترب منه رجل كبير في السن هاجم الشيب رأسه وعلى وجهه المُمتلئ بالتجاعيد علامات الغضب، وقال له في قوة:

- اتكل على الله من هنا يا صلاح ده مش موقفك.

نظر صلاح إليه في ثبات، وقال قبل أن يُدير له ظهره:

- معلش مَيجراش حاجة هاخد الأربع أنفار الناقصين وهمشي يا اسطى سيد.

سحبه سيد من يده بعنف وصرخ في وجهه:

- أنا مش بكلمك هنا.. بلا أربعة بلا تسعة، بقولك امشي انجر وقتي، بدل ما أفّرج عليك الموقف كله.

رد صلاح في تحدٍ:

- وأنا بقولك مش مِتحرك من هنا يا اسطى سيد، وشوف عايز تعمل إيه.

مع صرخة سيد ورد صلاح عليه، تجمهر في ثوانٍ باقي السائقين للتضامن مع قائدهم ضد هذا الوافد الجديد.. تسعة سائقين انشقت الأرض عنهم فجأة، أحاطوا بـ صلاح وسطهم، يَشْتَمُّ كل من يُتابع المشهد رائحة معركة حامية الوطيس غير مُتكافئة بالمرّة على وشك البدء.. دار صلاح نِصف دورة ببطءٍ مُراقبًا وجوه من أحاطوه في تحفّز، قبل أن يقترب منه أولهم قائلًا:

- إنتَ ياض مش الاسطى سيد قالك غور.. يقى تغور.. هو هيتحايل عليك بروح أمك

قالها، ثم أمطر صلاح بوابل من اللكمات والضربات في كل أنحاء جسده.. تَلوَّى صلاح وصرخ بآهات مكتومة من أثر الضربات المُتفرقة.. هتفت السيدة داخل الميكروباص بصوتٍ لم يسمعه من بالخارج وبلهجةٍ شامتة:

- أحسن يستاهل.. خليّهم يقطعوه.. آدي أخرة الطمع.

رد عليها مَن يجلس بجوارها:

- أحسن إيه بس يا حاجة دول هيموتوه حرام عليكي.

إنسال خيط من الدماء من جانب فم صلاح وسط اشتداد الضرب عليه من كل صوب.. فجأة ومن قلب الحدث انتفض صلاح وخلع البلوفر الذي يرتديه وألقاه على الأرض وقطع أزرار قميصه في عنفٍ وأخرج من جيب بنطاله الخلفي مِطواة أشار بها في وجوه الجميع الذين تراجعوا وأطلق صرخةً بصوتٍ أجش عالٍ خرج من أعماقه قبل أن يخرج من حلقه:

- عليّا الحرام من ديني ما ماشي قبل ما أكمل العربية واللي هيقربلّي هجيب كرشه.

غلّف الصمت التام الوضع.. المشهد بأكمله كان هزليًا.. صلاح بجسده النحيل مُمسكًا بمطواته في تهديد واضح للكل.. يلتف حوله العديد من الرجال مَفتولي العضلات الذين أوسعوه ضربًا منذ لحظات.. تبادل الكل نظرة مُفعمة بالترقُّب.. توجّه بعض الرجال بأعينهم إلى سيد وكأنهم يسألوه عن التصرف قبل أن يُبادر أحدهم بالانقضاض على صلاح صائحًا:

- إنتَ جاي لحد عندنا ترفع مطوة في وشنا يا ابن الكلب.

تفاداه صلاح في خِفّة وهتف:

- أنا مش عايز منكم حاجة.. هاخد الأنفار الناقصة وهمشي.

عاد الكل لتبادل النظرات مع سيد الذي يُتابع الموقف قاطبًا جبينه، حتى قال:

- سيبوه.. خلّوه يتزفّت.. بس وحياة أمّك يا صلاح ماهتعدي الحكاية دي ولينا كلام مع كبير الموقف بتاعك

تهللت أسارير صلاح ومَسَحَ خيط الدم بجوار فمه بكُم قميصه وواصل هتافه وكأن شيئًا لم يحدث!

- واحد ميدان لبنان.. واحد ميدان لبنان.

بدأ الركاب الأربعة يتوافدون واحدًا تِلو الآخر، ولم تمضِ أكثر من خمسة دقائق إلاّ وكانت العربية قد اكتملت.. التقط صلاح البلوفر من الأرض وألقاه على كتفه بإهمال قبل أن يركب السيارة ويديرها وينطلق بها في سرعة.. لحظات وأمسك بهاتفه المحمول وطلب رقمًا ما، وقال بصوتٍ مُتهدج:

- أيوه يا أمه لبّسي أبويا. أنا نص ساعة وهكون عندكم وهاجي أخده.. آه لأ معايا فلوس خلاص، لأ والمصحف لّما أجيلك هحكيلك ربك كريم.. سلام.

أنهى الاتصال ونظر في المرآة أمامه ووجه حديثه إلى الكل:

- لا مؤاخذة يا إخوانا اعذروني غصب عني ربنا ما يوقعكم في ضيقة.. هطير وهعوضلكم التأخير في السكة بس أمانة عليكم ادعوا لأبويا رايحين نكشف له.

(٢٠)

عيشة

يتهي الطبيب من فحص القدم المُتورمة للمريض العجوز المُمدد أمامه في سرعةٍ ومهارة خبير قبل أن يُبادره:

- تمام.. قوم يا عبد الواحد.

يتحرك الطبيب باتجاه مكتبه ويجلس على كُرسيه، ويبدأ بتدوين شيء ما على ورقة أمامه.. يعتدل المريض ذو الجلباب المُمزق والوجه المَمصوص، ويضع قدمه المُتفخة بصعوبة داخل شبشبه ويتجه بخطواتٍ مُتثاقلة نحو المكتب ويسأل:

- خير يا دكتور؟

يُجيبه دون أن يرفع عينيه إليه مواصلًا الكتابة:

- نقرس.

يُلقي عبد الواحد بجسده فوق المِقعد المقابل للمكتب في جزعٍ مُرددًا بارتياع:

- نُجرص!.. يا وجعة سودة ومهببة يا دكتور.

- جرى إيه يا عبد الواحد!.. هو أنا بقولك سرطان! ما نص الناس النهارده عندهم نقرس وعايشين.

- مش ده العيا اللي بيسموه داء الملوك؟

- أيوه هو.

- يعني إحنا وقت ما ناخد منهم متاخدش غير العيا يارب.

- أمر الله بقى إنتَ هتعترض؟!

- اللهم لا اعتراض.. بس يا بيه أنا أسمع إن العيا ده بيجي من كتر أكل اللحمة وأنا راجل بواب.. اللحمة مش بتخُش جوف أنا والعيال غير هي يا دوبك مرّة كل شهر طياري كده، يبقى جالي منين المدعوك ده بس؟

- ما هو مش شرط يا عبد الواحد.. النقرس زيادة البروتين في الجسم.. ممكن يجي من كتر أكل اللحمة أو كتر أكل البقوليات، زي الفول والعدس والـ....

يُقاطعه عبد الواحد في شُرود:

- ونعم بالله.. أصل ربِّك عادل حتى في توزيع أسباب العيا على عبيده.

- بالظبط كده الله يفتح عليك.

يُناوله ورقة ويُواصل:

- دي قايمة الممنوعات اللي هتبعد عنها خالص.. فول، لحمة، تسالي، طماطم، بامية، بسلة، وكام حاجة تاني.

يُمسك بالورقة في ألم قائلًا:

- طب ودي تبقى عيشة دي يا دكتور؟

- معلش لحد ما نظبط نسبة اليورِك أسيد في جسمك.. كتبتلك كمان فوّار وأقراص هتمشي عليهم لحد ما تبقى أحسن إن شاء الله.

- مَلوش لزوم لـدّه كله يا دكتور.. يعني هي عيشة ولا أكتر.
- لأ إزاي! اعملَ اللي عليك للآخر.. معاك حد يروحك؟
- أيوه صلاح ابني مستنيني برّه
- ألف سلامة.

قالهـا، ثـم ضغـط عـلى زر استدعاء التمرجـي بجـوار المكتـب مُعلنًا انتهـاء الكشـف.. رفـع عبـد الواحـد جسـده بصعوبـة ودفعـه دفعًا نحو البـاب وهـو يجـر قدمـه، ومـا أن عـبره حتـى جـرى عليـه ابنـه:

- قالك إيه يا أبويا؟

يُداري الروشتة داخل كفّه ويرد بثقة:

- ولا أيتوها حاجة.. قالي وارمه عشان التوت تحتيا.

يرد ابنه مُندهشًا وهو غير مُصدِّق:

- صحيح والنبي!.. و ده يعمل الوجع ده كله؟
- آه والله زي مـا بقولـك ويعمـل أكـتر مـن كـده كـمان.. يومـين تلاتـة وهـتروق.. يـا خسـارة تمـن الكشـف.

تهللت أساريره الابن وهتف:

- طـب الحمـد لله إنـه جـت عـلى قـد كـده.. فـداك تمـن مليـون كشـف.

تأبط زراع ابنـه مُستندًا عليـه.. دون أن يُلاحـظ الابـن يُلقـي عبـد الواحـد بالروشـتة في صنـدوق القمامـة بجـوار بـاب العيـادة، ثـم يخرجـا.

(٢١)

دخول مفاجىء

عبر الهاتف جاءه صوت أحد أفراد الإنتاج بالمسلسل:

- فيه دور ليك معانا يا أستاذ في مسلسل (الزعيم) الجديد.

تهللت أساريره وقال بفرحةٍ صادقة نابعة من أعماق قلبه:

- يا فرج الله.. بجد والنبي.. بتتكلم بجد!

- أيوه يا باشا ده كمان طلبك بالاسم.

قال بفخر وتعالٍ :

- طبعًا طبعًا.. عادل ده اكتشافي.

- أكيد يا نجم.

سأل بلهفة:

- إمتى يا ابني؟

- بكرة على طول.

- طب مش تبعتولي السيناريو عشان أقراه وأستعد؟

- لا ما هي مش مستاهلة ورق.. حضرتك دور شرفي.

- دور شرفي دور شرفي.. حد لاقي.. طب معلش يا ابني عندي سؤال كده.. بالنسبة للأجر؟

- متقلقش اللي حضرتك هتقول عليه هتاخده.

- اتفقنا.

- الساعة عشرة الصبح بالثانية هتلاقي العربية بالسواق قدام بيت حضرتك.

استقبل (فوزي النمر) المُمثل الكوميدي الأشهر في الثمانينات الكاملة السابقة في حُبُور ونشوة تناسب مُمثلًا مَغمورًا حصل على بطولة مُطلقة لتوه، وليس نجمًا تجاوز الـ ٧٠ عامًا له اسمه في عالم الفن لطالما حققت أفلامه أعلى الإيرادات قديمًا.. لكنها للأسف سُنة الحياة والمرض.. كانت بداية ابتعاده عن الوسط الفني إصابته بمضاعفات مرض القلب فأصبح غير نادر على القيام بأي مجهود منذ مُنتصف الثمانينات، وانتشرت وقتها إشاعة قوية داخل الوسط مفادَها (فوزي النمر الزمن والمرض هَدُّوه).. صُرفت عنه الأضواء ثم المُتجين.. وتوارى تدريجيًا حتى أصبح في طي النسيان.. نساه الناس ونسي نفسه.. يعيش وحيدًا دون زوجة وأولاد مُعتمدًا على الراتب الضئيل الذي يُصرف له شهريًا من نِقابة المهن التمثيلية.. تحويشة ٢٥ سنة عمل هي فقط سيارة كاديلاك مُتهالكة موديل الثمانينات، وشقة صغيرة بحي الزمالك كان قد امتلكها منذ رُبع قرن على الأقل.. أغلق الهاتف وقلبه يرقص طربًا.. فتح باب الشقة

ونــادى بصــوتٍ جهــوري:

- يا أبو صلاح.. يا أبو صلاح.. يا بواب الغبرة.

يأتيه صوتٌ أنثوي من بير السلم:

- مش قاعد يا فوزي بيه.

- يخــرب بيتــك عــلى بيتــه.. أتحــرق أنــا يعنــي لغايــة مــا اليــه يــشرَّف؟

- طالعالك يا بيه أهو.

يــترك البــاب مُواربًــا ويدخــل إلى الصالــة يلتقــط ورقــة صغــيرة ويســحب القلــم الجــاف مــن جيــب الــروب ويُــدوِّن عليــه.. يــرن جــرس البــاب.. يــرد:

- خُشّي يا أم صلاح الباب مفتوح.

تدفــع البــاب ســيدة في أواخــر الخمســينيات مــن عمرهــا وتقــف عنــد مدخــل الشــقة بمُحــاذاة البــاب تمامًــا دون أن تدخــل.. يتجــه إليهــا فــوزي:

- جــوزك فــين بنــادي عليــه مــن الصبــح.. مــش هيبطــل الصرمحــة بتاعتــه دي؟

ترد في أسى:

- تعبــان والله يــا أســتاذ ادعيلــه.. ده صــلاح جــه خــده وداه للدكتــور مــن حبــة.

يغمز بعينيه:

- ليكون متجوز عليكي يا ولية، وبيروح لمراته التانية!

تضرب صدرها بيدها في هلع، وتقول باستنكار بالغ:

- مين؟!.. أبو صلاح.. فشر.. تف من بُقك، ده لو لف الدنيا مَيلاقيش ضوفري.

ينهرها:

- إنتي هتسايري معايا؟!.. دي ورقة طلبات عايزها حالّا.. ماكنة حلاقة وإزازة كلونيا خمس خمسات وصبغة صغيرة.. خُدي وخلّي الباقي عشانك.

يُناولها الورقة ملفوفًا وسطها ورقة نقدية بعشرة جنيهات.. أمسكت بورقة الطلبات وفضّتها، ثم قلبت ورقة النقود بين أصابعها بعدم اقتناع، وقالت:

- ١٠ جنيه بحالهم!.. يادي الهنا.. وليه البعزقة دي يا بيه؟

لم يتنبه لنبرة السُخرية في صوتها، وقال:

- مش خسارة فيكي الباقي.. دي حلاوة الشغل الجديد.

ترد إليه النقود وهي تُمصمِص شفتيها:

- لا حيث كده خلّيها علينا إحنا خالص المرّة دي.

يسحب النقود منها في سرعةٍ ويضعها في جيبه:

- أصيلة يا أم صلاح.. يالّا بسرعة متأخريش.

يقولها، ثم يُغلق الباب في وجهها المُندهش بسرعة.

في اليـوم التـالي وقبـل الموعـد بخمـس دقائـق نـزل مـن ال
مُتأنقًـا عـلى أكمـل وجـه، مُرتديًـا بدلـة إنجليزيـة عتيقـة مكون
ثـلاث قطـع، تفـوح منـه رائحـة الكولونيـا العَتيقـة، وشـعره غـار
بحـر مـن السـواد.. وجـد سيارة حديثـة تقـف أمـام مدخـل الع
مبـاشرةً، بجوارهـا شـاب مُلتحـي انتبـه في وقفتـه عندمـا لاح
فـوزي مُقبـلًا عليـه.. فتـح لـه بـاب السـيارة.. أشـار لـه فـوزي ة
أن يركـب:

- إزيك..

- أهلًا يا فندم هتشرفنا وتنورنا.. اتفضل.

ركـب السـيارة وجلـس في الكنبـة الخلفيـة.. بـدت لـه ملامـح
السـائق الشـاب مألوفـة إلى حـدٍ مـا، رغـم لحيتـه التـي تُغطي
جـزءًا غـير قليـل مـن وجهـه، لكنـه عجـز عـن تذكـره فتجاهـل
الأمـر برمتـه.. أخـرج مِشـطًا وأخـذ يُصفِّـف شـعره بعنايـة في مرآة
السـائق.. تحرَّكـت السـيارة.. لحظـات ووقفـت عـلى مقربـةٍ من أحد
الأكشـاك.. لـفَّ السـائق وجهـه إلى الخلـف وقـال:

- بعـد إذنـك يـا بيـه هنـزل أجيـب علبـة سـجاير مـن الكشـك
الـلي هنـاك ده.

- ده وقتـه برضـه؟.. مـا إنـتَ كنـت واقـف مـن شـوية مجيتهاش
ليه !

- خُفـت سـيادتك تنـزل متلاقينيـش.. معلـش هخطفها خطف..
ثـواني بس.

بشير لـه في ضجـر.. يفتـح الشـاب بـاب السـيارة، وقبـل أن ينزل ضغـط بخفـة علـى جهـاز مربـع أسـود صغـير في حجـم كـف اليد موضـوع فـوق التابلـو فظهـرت عـلى شاشـته أرقـام بلـون أحمر تتناقـص تدريجيًـا.. ٢:٠٠ ..١:٥٩ ..١:٥٨.. نـزل الشـاب مُسرعًـا وأغلـق بـاب السـيارة خلفـه في إحـكام.. انتبـه فـوزي إلى الجسـم الغريـب، ونظـر خـارج السـيارة فلـم يجـد الشـاب.. عـاد ببصـره إلى الجسـم مـرّةً أخـرى، وتابـع العـد التنـازلي الـذي يهبـط في سرعـة.. ١:٤٠..١:٣٩.. صرخ في فـزع:

- إيه ده؟!.. إيه ده؟!.. فيه إيه؟!

ردد الكلمـة رهـو يحُـاول فتـح البـاب والخـروج، لكـن دون جـدوى، فقـد كان مُغلقًـا بإحـكام.. طَـلَّ الرعـب مـن عينيـه الجاحظتـين.. سـعل في شـدةٍ وقبـض بيـده عـلى قلبـه الـذي انتفـض في قـوة.. فوجـئ بدخـان كثيـف ينبعـث مـن مـكان لم يسـتطِع تحديـده داخـل السـيارة.. فـك أزرار قميصـه بيـدٍ مُرتعشـة مُـرددًا برعـب:

- الحقوني.. فيه إيه.. إيه اللي بيحصل!

ثـوانٍ وغطـى الدخـان أغلـب مسـاحة السـيارة مـن الداخـل وأصبحـت الرؤيـة شِـبه منعدمـة، لكنهـا كانـت كافيـة أن يـرى بصعوبـة ذلـك اللـون الأحمـر المُهتـز الـذي يتناقـص في شراهـة.. ٠:٥٩.. ٠:٥٨.. سـعل بصـوتٍ أكـبر وأمسـك صـدره وكأنـه يُريـد أن يُبطـئ مـن سرعـة دقـات قلبـه.. حـاول كـسر الزجـاج لكـن قـواه المُتهالكـة خـارت ولم تسـعِفه.. يظهـر السـائق في تلـك اللحظـة بجـوار السـيارة مُتابعًـا مـا يحـدث مـن الخـارج بشـغفٍ وعـلى وجهـه

ضحكة لم يستطع كِتمانها، فيأتيه صوت شخص آخر عبر سمّاعة موضوعة في أذنه:

- كفاية كده يا رامز افتح له إحنا مش شايفين حاجة في الكنترول من الكاميرات اللي في العربية.

يضحك رامز ويرد في سرعة:

- لسّه شوية اصبر بس.

- الدخان غطا كل حاجة جوّه

يصمت ولا يرد وهو يتابع الموقف بشغف كاتمًا ضحكته.. يأتيه الصوت عبر سماعة الأذن مُكررًا:

- يا رامز اخلص.

- حاضر حاضر.

يُمسك رامز باب السيارة بيده ثم يفتحه فجأة ويفرد ذراعيه صائحًا:

- حبيبي.. حبيبي.. والمصحف مَتضرب.. والمصحف مَتضرب.

يتهاوى نصف جسد فوزي العلوي ساقطًا خارج السيارة بلا حراك، فيمسكه رامز ويُنادي بصوتٍ عالٍ:

- هاتولنا ميه يا جماعة.. ميه بسرعة.

يتجمع أفراد فريق التصوير حولهما.. يساعدون رامز في إخراج باقي جسد فوزي من السيارة ويُرقِدوه على الأرض

برفق.. أحدهم يُناول رامز زجاجة مياه فيفتحها بسرعة ويرش منها على وجه فوزي مُدلكًا إيَّاه ومُناديًا:

- عم فوزي.. عم فوزي.. إنتَ زي الفل مَفيكش حاجة والمصحف.

يُمسك آخر بيد فوزي لحظة، ثم يهز رأسه آسفًا، وينظر إلى رامز قائلًا:

- الراجل مات يا رامز.

(٢٢)

قسمة ونصيب

في محطة قطارات رمسيس وسط الصَخب والضَجيج اكتظ المكان بالمُسافرين.. تباين مُتعدد في كل تفاصيل الصورة.. أشكال المسافرين، أشكال حقائبهم، أشكال القطارات وحتى أشكال الباعة الجائلين على الأرصفة.. على أحد مقاعد الانتظار يجلس شاب أسمر من عُمّال المحطة يرتدي زي أزرق مُميز لمهنته كشيال.. يداه مُتشققتان ملمسها خَشِن جلدهما سَميك وأظافره مُتسخة الأطراف بفعل طبيعة عمله.. ملابسه تمتلئ ببقع شحمية مُتنوعة الحجم..عرقه الذي لا يجف أصبح وكأنه أحد ملامحه وجزء لا يتجزأ منها.. الشقاء وعشق المُعافرة على أكل العيش رسما سويًا على وجهه سنوات تتخطى سنوات عُمره الثلاثين بكثير.. يجلس بجواره رجل كبير في السن يرتدي نفس الملابس لكنها كانت أحسن حالًا نوعًا ما من ملابس الشاب.. يميلان على بعضهما في حديث ظهرت جديته من ملامحهما أثناءه.. الشاب كان ثائرًا.. يخرج منه صوته بشكل كان يحاول أن يجعله خفيضًا قدر المُستطاع لكنه لم يستطِع أن يُخفي غيظه أو

جزّة أسنانه أثناء الكلام.. تقطع حديثهما سيدة ريفية بسيطة تحمل فوق رأسها قُفّة ضخمة وبيدها كيس أسود كبير الحجم وتسأل أثناء مرورها من أمامهما وهي تشير:

- قطر بورسعيد ده يا أخويا؟

- عدّي اليمّة التانية يا خالة.. على وصول.

قالها الشاب ثم مد يده إلى الرجل الجالس بجواره مواصلًا حديثًا لم نسمع بدايته:

- عهد مين ده؟

يمد الرجل كفه ويضعه في كف الشاب ويرد:

- لا إله إلّا الله.

- ورحمة أبويا كمان مرّة أنا مقصرت مع سميحة في أي حاجة وتعالا نشّهد أي واحد من الخلق اللي حوالينا دول كلهم وشوف يقولك إيه.

- بدون ما اسأل ولا دياوله يا فرج.. أنا عايزك إنتَ تقولّي إيه اللي حصل وفين المشكلة؟

- يا عم مرسي بتك مش قادرة تفهم إن كل واحد وله مقدرة.. طلعت ولا نزلت أنا راجل على قد حالي.. اللي بقدر عليه بعمله من سُكات بس بالعقل.. تعالَ معايا فرح شروق زميلتي في المعهد حاضر.. نخرج مرّة في الأسبوع ماشي.. لكن ملوش لزوم الكلام اللي بتسمم بيه بدني كل حين ومين ده.

- كلام زي إيه؟

- كل يومين تلاتة الطلبات تكتر وتجر بعضها شوية بشوية.. عايزة أزوِّد دهب شبكتي.. عايزة فساتين.. عايزة أغيّر الموبايل.. هي عارفة أنا لو أطول أجيبلها حتة من السما مَكتتش هتأخر وإنت كمان عارف بس مَينفعش لو مجبتش يبقى مَبحبهاش ده مش كلام ناس عاقلين!

يهز مرسي رأسه في تفهم فيتشجع فرج ويواصل:

- بدون ما تطلب ولا تفتح بُقها كل ما ربنا يفرجها من عنده بقرشين من هنا ولا من هنا كنت بستخسر في نفسي وأجيبلها اللي تطوله إيدى من اللي نفسها فيه وأقول معلش يا واد ما هو برضه مش لحد غريب ومسيرها في بيتي.. غلطان أنا كده يا عم مرسي؟

يرد في سرعة:

- لا يا ابنى.. كمل.

يُتابع فرج في أسى:

- آخرها من أسبوعين.. دبّت معايا خناقة لرب السما ليه؟ عَشان بكَنْسل عليها قال!.. ده كلام!

يبدو على وجه مرسي أنه لم يفهم الكلمة فيشرح فرج:

- أكنيل.. أكنيل.. يعنى مَردش على التليفون لما تتصل.

- وأنت مَتردش ليه عليها؟

بنفاذ صبر:

- يـا آبـا أكنيِـل دي معناهـا مـش فـاضي.. مـش شـتيمة ولا قباحـة يعنـي.

يستوعب المعنى فيهتف:

- آه وإنتَ بتشتغل يعني.

- عليـك نـور.. مـا أنـتَ معانـا في الشُـغلانة وفاهـم.. وأنـا قايلُهـا بـدل المـرّة مليـون أنـا شـغّال تحـت إيـد رَيـس ابـن وسـخة مـا بيصـدق حـد فينـا يتدير يمـين ولا شـمال أو يـروح يصـلي حتـى عشـان ينفـخ أهلـه ودي ولا هـي هنـا.

ابتسم مرسي مُحاولاً تلطيف الجو وقال:

- بس إنتَ عبيط و مش قـاري دمـاغ النِسوان برضـه يـا فرج.. كنيـل يـا أخـي وحبّـة وارجـع كلمها.

- يـا عـم ومـين قالـك إنّي مـش بكلمهـا كل يـوم.. بـس بنتـك عايزاني أسيب الـلي ورايـا وأكلـم فيهـا ليـل نهـار.. عايزانـا نعيـش جـو مـش بتاعنـا ولا هيئـة شـبه هيئتنـا.

- ما هي بنت زي باقي البنات وعايزة تعيشلها يومين.

- وسـت البنـات كـمان وكنـت مُستعد أشيلها عـلى راسي لآخـر العمـر.. لحـد مـا قالتهـالي في وشي يـا عـم مـرسي.

ينظـر مـرسي إليـه مُتسـائلاً.. تتجـه عـين فـرج إلى أسـفل ويقـول في مـرارة:

- قالتلي إنتَ شيّال.

يُصعق مرسي من الكلمة ويقول مصدومًا:

- بنت الكلب!.. قالتلك كده!.. هي نسيت أبوها شغال إيه!

يهز فرج رأسه ومازال ناظرًا إلى أسفل.. يواصل مرسي في جدية:

- عندي أنا دي يا فرج.. حقك عليّا أنا.. وليك عليّا ورب الكعبة أجيبهالك من شعرها تحب على دماغك.

- مَلوش لزوم يا عم مرسي.

يُحاول مرسي الابتسام مُجددًا ويقول:

- ماين وسايس عشان أمورك تمشي ياض.. أومال كنت هتجوز إزاي بدماغك الخرا دي!

- سميحة أتغيرت ومَعادتش هي سميحة بتاعت زمان.. الطيّبة المُنكسرة اللي ترضى بقليلها.. بقت عينيها تروح للي في إيد فلانة وعلانة.. يعلم اللي خلقك أنا عمري ما حييت حد في الدنيا قد دراعي عشان هو اللي بيأكلني عيش ولما حصل نصيب واتخطبنا أنا يعلم الله إن بتك بقت حتة منّي بس بعد اللي قالته النهارده ويتلمحله بقالها كذا يوم يبقى كل واحد يروح لحاله.. كله إلّا كرامتي.

طل الأسى في صوت مرسيٍ وهو يقول:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله.

- أنا رسيتك على الدور من أوله عشان إنتَ كبيرنا وميِنفعش أعمل حاجة بدون ما أرجعلك.

- يعني ناوي برضه؟

ربت فرج بيده على ركبة مرسي وأجاب:

- نصيب يا حجيجة.. تفضل هي زي أختي وإنتَ زي أبويا إحنا برضك بينا عيش وملح.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.. اللي تشوفه يا ابنى ربنا يصلح لكم الحال.

قالها ثم اعتدل الاثنان سويًا في جلستهما ونظرا إلى الأمام في شرودٍ إلى حركة القطارات يُتابعاها بدون كلام.. ذابت عيونهما وسط الحشود التي تتحرك.

(٢٣)

راسين فى الحلال

لامست قدميه رصيف المحطة هابطًا من القِطار القادم من طنطا.. للوهلة الأولى شعر بالغُربة في مدينة الألف مِئذنة.. (عبد الرحمن) الشاب الريفي الوسيم العامل بشركة حليج الأقطان بطنطا.. رغم أن عمره تجاوز مُنتصف العشرينات بقليل إلّا أن تلك أوّل زيارة له للقاهرة وكثيرًا ما كان يتوق لها ولكن في ظروفٍ أفضل من تلك التي أجبر عليها هذه المرّة.. من فترة قريبة فوجىء بمديره في العمل (شوقي) ناعمًا رقيقًا على غير عادته الغليظة وكأنه يُخفي شيئًا ما.. سماح بإنصراف مؤقت دون أن يطلب.. صرف مكافأة إجادة مرتين خلال أسبوع واحد وهو مالم يحدث إطلاقًا على مدار عامين ولو مرّة واحدة!.. حتى أوّل أمس عندما عرضها عليه مديره بصراحة:

- إنتَ مش ناوي تتجوز يا عبد الرحمن.

ابتسم في سُخرية وقال:

- منين يا أستاذ شوقي؟

- لأ منين دي خلّيها بعدين.. بص يا ابن الناس.. المثل بيقول أخطب لبنتك ولا تُخطبش لابنك.. وأنا عايز أناسبك؟

هتف مُندهشًا:

- في مين يا باشا!.. إنتَ ولادك أطفال وأنا مَعنديش إخوات بنات.. مَعنديش غير أمّي!

- أمّك مين ياض.. أنا عايزك لأختي.

عبد الرحمن لم يرَ أخت شوقي من قبل وكل ما كان يعرفه عنها كباقي زملائه أنها مُطلَّقة لديها طفلتين وتعيش مع شوقي وأسرته في منزله بالقاهرة.. وكان يعرف أيضًا أنَّ قرار تثبيته في العمل أمره بيد شوقي والذي يتعمَّد تأجيله منذ مدة بلا مُبرر وبالتالي لم يكن من الحِكمة أن يرفض.. وجد نفسه لا إراديًا يرد بخجلٍ مُتوتر:

- دا أنا أتشرف يا أستاذ شوقي بس...

يُقاطعه بحسم:

- خلاص يبقى تيجي تشرفني في بيتي في القاهرة بعد بكرة على طول.. تتغدى معانا وأهو تتعرف على زهرة أختي.

في يوم الزيارة يدخل شوقي إلى منزله البسيط حاملًا أكياسًا عديدة فتستقبله زوجته من على الباب وتحمل عنه بعضها ويدخلان إلى المطبخ.. يهتف شوقي في زوجته وهو يُعاونها في

وضـع الأكيـاس:

- عايزك تشهّلي شوية الراجل زمانه على وصول.

- حالًا أهو.

تفـض الزوجـة الأكيـاس بسرعـة وكأنهـا تبحـث عـن شـيء مـا ثـم تقـول لـه في خَيبـة:

- هي دي بس الحاجات اللي جبتها؟

يُجيب في غِلظة:

- آه.. رز وبطاطس وخضـار للسلطة وبطيخـة واتنـين كيلـو مـوز واتنـين لـتر حاجـة سـاقعة.. عايـزة إيـه تـاني؟

- يـآدي الكسـوف.. مـش كنـت جبـت فرخـة حطيناهـا في قلـب البطاطـس كانـت هتمّـل شـكل الصينيـة وتديهـا قيمـة كـده.

يرد باستنكار:

- أنتي عارفة الفرخة تمنها كام؟

تقول غير مُصدِّقة:

- يـا سـاتر عليـك.. دي في وشـك.. ده عريـس أختـك وأول مرّة ييجـي بيتـك!

- لسّـه مَبقـاش عريسـها.. وبعديـن هـو كان يقـدر مَيجيـش دا أنا ماسـكه مـن رقبتـه كـده.. الترقيـة الـلي بيحفـي عليهـا في إيـدي!.. وأنـا برضـه مـش أهبـل مجيبـش وأكلّـف وإحنـا لسّـه عـلى الـبر.

- بالعكس والله أنا قلبي حاسس إنها المرّة دي هتكمل على خير.

يسأل بلهفة:

- اتكلمتي معاها؟

- جَسيت النبض من حبة كده.. أختك غلبانة يا سي شوقي مَتجيش عليها ومَتظلمهاش.

يرد بعنف:

- مَتُحشوريش نفسك بيني وبين أختي.

تنكمش في ضعف وتقول:

- حاضر والله ما قصدي.. ربنا يتمم لها على خير.

- ياريت ألّا الواحد بقت روحه في مناخيره.. الشقّة ضاقت علينا هي وعيالها وأنا وإنتي والعيلين.. قرف.

تُحاول الابتسام قائلة:

- إنتَ وعدتني بكره تفسحني أنا والعيال في المول ده اللي اسمه هايبر بقالنا كتير مخرجناش.

زَجر في عصبية قائلًا:

- إحنا لسّه في النهارده ولحد ما ييجي بكره مش عايز زّن.

وافقته بإيماءة خوف من رأسها وبدأت فورًا في إعداد طعام العزومة الأورديجي.. بعدها بحوالي ساعتين وصل عبد الرحمن..

استقبله شوقي وتناولا طعام الغذاء سويًا راعى خلالها أن يتحدث أمامه عن أخته كثيرًا.. أخلاقها، تربيتها، رفضها للعديد من العرسان إلّا مَن يختاره هو لها.. دَوت ضحكة مُجلجلة داخل أعماق عبد الرحمن لم تتجاوز أعماقه فهو يُدرك أنَّ العادة اقتضت أن أصحاب السِلع الفاسدة يُجمِّلون في بضاعتهم دومًا.. زادت الضحكة بداخله بعدما دعاه شوقي ليُصليا معًا فطوال عامين لم يره يسجد ولو ركعة بالعكس كان دائم توقيع الجزاءات لمن يقطعون عملهم بسبب الصلاة.. استمع عبد الرحمن لحديثه مُتظاهرًا بالإهتمام حتى نادى شوقي بصوتٍ جهوري:

- الحاجة الساقعة يا زهرة..

دخلت عليهم (زهرة) أخت شوقي و هي تحمل أكواب العصير.. تفحّصها.. كانت نُسخة أنثوية من شوقي.. قسمات وجهها مُفتقرة إلى أية جاذبية.. جسدها مُمتلىء إثر إنجاب طفلتيها من زوجها الأول.. شعرها مُجعد أكرت أقرب إلى قوالب شعرية أندومي قبل إلقائها في الماء الساخن.. بإختصار لم تكن لتُلفِت انتباه أي رجل وهذا ما لاحظه عبد الرحمن فأبتلع ريقه بعدأن تناول كوبه بيدٍ متوترة.. خرجت زهرة مُتصنِّعة الخَجل.. اقترب شوقي بوجهه ولفحت أنفاسه الكريهة وجه عبد الرحمن وقال بصوتٍ خافت:

- إيه رأيك؟

أغمض عينيه للحظة ثم ابتلع ريقه مرّة أخرى ثم رسم بصعوبة على وجهه ابتسامة وقال في استكانة:

- لا ما شاء الله الله أكبر.

- الله أكبر.. يعني نقرأ الفاتحة بقى؟

- طبعًا.. وقبل الفاتحة كمان عايز أقولك يا أستاذ شوقي إني أخيرًا حَسيت إني لقيت الإنسانة الكاملة من كل حاجة.. الجمال.. الرقة.. البساطة.. الهدوء. الشياكة.

يتعجب شوقي ويتجه ببصره إلى الباب الذي خرجت منه زهرة منذ لحظات:

- زهرة!

- أكيد.. دي هي دي الإنسانة اللي تقدر تشيلني.

- تشيلك في إيه؟.. إنتَ مش عندك بيت وأرض وأمورك متيسرة؟

- آه الحمد لله.. لأ أنا قصدي تشيلني في حاجة تانية.. في مرضي.

- عيّان عندك إيه؟

يصمت ويطرق برأسه أرضًا ولا يرد.. يُعنِّفه شوقي بصرامة:

- مِتنطق.

- إيدز.

ينتفض شوقي من مكانه مُرددًا في هلع:

- إيدز؟!

- بس فيه أمل إني أخف.

يقول في حسرةٍ وهو ما زال تحت تأثير الصدمة:

- يا أخي إتنيل تخف من إيه بس هي حَصبة!

- أنــا مــش عايــزك تقلــق خالــص مــرضي مــش هيكــون عائــق قدامــي عشــان أســعد مــدام زهــرة.

يُقاطعــه شــوقي عندمــا يقــف ويدعــوه للتحــرك معــه ناحيــة الباب قائلًا:

- شــوف يــا عُبــد إنــتَ عــارف إن كل حاجــة قســمة ونصيــب وهــي أختــي وأنــا عارفهــا.. والله مَتســتاهلك.

يتحرك معه للخارج ويتظاهر بعدم الفِهم وهو يقول:

- إيه اللي إنتَ بتقوله ده يا أستاذ شوقي؟

- زي مــا بقولــك كــده والله إحنــا عيلــة مَعيوبــة واطيــة مَفيــش أوســخ منتــا.

يصــلان في هــذه اللحظــة إلى بــاب الشــقة فيفتحــه شــوقي.. يســأله عبــد الرحمــن في قلــقٍ مُصطنــع:

- طبعًــا دي حُريتــك والــلي إنــتَ تشــوفه بــس بالنسبة للدرجــة الوظيفيــة بتاعتــي الــلي....

يزيحه شوقي بيده ليُخرجه من الباب بصعوبة:

- بعد بكرة الصبح همضيلك عليها.

تتهلل أسارير وجهه ويهتف:

- أنا والله مش عارف أشكرك إزاي.. ممكن أحضنك؟

يبتعد شوقي إلى الداخل في سرعة ويرفع يده في رعب:

- لا لا لا..

- ولا حتى أبوسك؟

يُزيحه شوقي بقوة خارج المنزل ويُغلق الباب في قوة قائلًا:

- يا عم روح بقى يا بااااى.

ينصرف عبد الرحمن مطرودًا لكن على وجهه ابتسامةً عريضة ، وفي صدره قلبٌ يكاد يقفز طربًا بين ضلوعه من فَرط السعادة بعد نجاته وفي انتظاره ترقية وَشيكة تأخَّرت كثيرًا.. خرج فائزًا بكل شيء ولم يخسر إلّا ذنب كذبة بيضاء.

-

(٢٤)

آيس كريم

بسبب طبيعة عمله لم يعتَد موظف كاشير هايبر وان فـ مدينة الشيخ زايد بـ ٦ أكتوبر أن يُدقق النظر لرواد المكان خُصوصًا أنَّ المئات منهم يمرون عليه يوميًا.. لكن شيءٌ ما شده إلى تلك الأسرة البسيطة بالذات بمُجرد مرورهم من أمامه أثناء دخولهم المكان الشهير.. زوج وزوجته وطفليهما.. ربما بسبب بساطة مظهرهم التي لا تتناسب مع ما اعتادَ أن يراه من مستويات اجتماعية مرموقة نوعًا ما.. الرجل ضخم الجثة أصلع غليظ الملامح في أواخر الأربعينات يرتدى بنطالًا من القماش وجاكت جلدي مفتوح يستقر أسفله قميص مقلَّم اِنفكَّ أوسط أزراره بفعل الكِرش المُستدير المُتدحرج أمامه مع بعض حبّات العرق التي تُزين جبينه رغم وجود التكييف المركزي.. يسحب بيده أكبر أبنائه (٣ سنوات) بقسوة لم يفهمها الكاشير.. تسير وراءهما زوجة لا تقل بساطة في ملابسها.. لكن على العكس ملامحها طيبة.. مغلوبة على أمرها مثل أغلب سِتات البيوت.. عيناها في الأرض ترفعهما وتُديرهما على استحياء فتظهر فيهما لمعة

انبهار خجل من الجو العام للمكان الذي بدا أيضًا أنها المرة الأولى التي تطأه فيها قدامها.. تحمل بين ذراعيها طفل رضيع لم يتعدَ العام.. الزوج كان عصبيًا بشكلٍ أو بآخر كان واضحًا في طريقة سحبه لابنه ونبرة صوته في الشخط للطفل وأمه (اتنيل مد ياض، مَتخلّصي في يومك المهبب على دماغك ودماغ أهلك) تفاصيل أخرى مثل قطب الجبين والنفخ تؤكد أن تلك الخروجة كانت على غير رغبته من الأساس.. قبل اختفائهما من أمامه التقطت أذنا الكاشير بالكاد جملة قالتها السيدة لزوجها (فكها يا أبو عمر، فكها خلّي ربنا يفكها إحنا جايين نبسط).

نسى أمرهم تمامًا وانشغل في عمله حتى فوجئ بعد ساعة أو أقل بصوتٍ عالٍ عند كاشير آخر وراءه.. الْتَفَت بسرعة ليُتابع المصدر.. وجدها نفس الأسرة!.. الزوج يقف في مواجهة زوجته وقد استشاط غضبًا:

- علياَ الطلاق مَهشتري حاجة تاني.. أنا منبه عليكي قبل مَنخش.

نظرت الزوجة قليلة الحيلة في الأرض وهمست في ضعف:

- والله العظيم هو اللي شبط.. والله مَقولتله حاجة.

- وحياة أمّك! يعنى الواد شب وفتح التلاجة وخد الدولسي ونزل.. أهبل أنا.

الطفل ذو الثلاث سنوات يُمسك بعبوّة الآيس كريم ويقف حائرًا بين أبوينه ناظرًا إلى أعلى ينقل نظره بينهما غير مُدركًا لِما يجري.. الصوت العالي يبدأ في جذب الناس تدريجيًا.. ترد

الزوجة محاولةً الابتسام:

- خلاص مَيجراش حاجة أنا هدفع تمنها.. دي كلها باتنين جنيه.

- عليّا الحرام منّك لا هتدفعي ولا هدفع عشان تبطّلي سهتنة الحريم بتاعتك دي.

تلتفت الزوجة حولها في خجلٍ عندما تلاحظ أنها أصبحا مَثار اهتمام أغلب الناس في المكّان وبدأوا في التجمع حولها فتقول:

- طيب خلاص بلاش مش مهم بس بالراحة..عشان خاطر ربنا الناس بتبص علينا.

أشاح الزوج بيده في عصبية غير مُبررة:

- بلا ناس بلا خرا دا إنتي تقرفي بلد إنتي وعيالك.. أنا غلطان إني دخلتكم أماكن نضيفة زي دي.. انتوا آخركم تترزعوا في البيت.

بصوت تخنقه الدموع مواصلةً تلفُّتها حولها وقد ابتلعها الخجل قالت:

- كفاية الله يخليك.. كفاية.

يواصل بعصبية:

- غوري غوري دا إنتي طهقتيني.. دا أنا شايل منّك ومعي.

خيّمت الحالة العصبية على الأجواء وفرضت نفسها.. الموقف

كل . مُتوتر.. يستمر الزوج في حالة السخط والزعيق والشتائم
ال‍ ‍اتابته.. يتجمع حولهما الناس أكثر فأكثر.. الزوجة تبكي..
بـ‍ ‍ـل أشد عُمَّال المايبر في محاولةٍ للتهدئة:

‍صلي على النبي يا فندم.

‍زوج ناهرًا إيّاه ورافعًا إصبعه مُحذرًا:

· بقولك إيه لو سمحت خليك في حالك وشوف وراك إيه.

يعود العامل إلى صفوف المُتابعين.. يُواصل الزوج سيل الشتائم والتعنيف.. تتوقف الزوجة عن البكاء.. تسرح عيناها في الفراغ.. بدت وكأنها مُنومة مغنطيسيًا وظلّت تُكرر:

- كفاية كفاية كفاية (ترتفع النبرة) كفاية كفاية كفاية.

صرخت وهي ترفع كف يدها وتهبط به على وجه زوجها:

- كفااااااااية.

أُصيب الزوج بحالةٍ من التناحة غير مُستوعبًا ما حدث وجحظت عيناه في ذهولٍ وهو يتحسس موضع القلم على وجهه.. صمتٌ تام غلّف المكان كله.. ثبتت الصورة كلها باستثناء صدر الزوجة الذي يعلو ويهبط من شدة الانفعال وصوت الرضيع وكأنه يتضامنٌ مع أمه ببكائه.. نظر الزوج بقسوةٍ إلى زوجته التي بدت وكأنّ حجمها تضخم خلال الثواني القليلة الماضية على الأقل إلى الضِعف ثم ألقى الكلمة في وجهها مرةً واحدة:

- إنني طالق.

قالها وخرج فورًا مُلقيًا ما كان بيده من مُشتروات على الأرض.. كأنَّ الزوجة لم تسمع العبارة.. سحبت نفسًا عميقًا ثم ابتلعت ريقها.. شدت يد ابنها الأكبر وأمسكتها بيمينها في قوة.. عدّلت من وضعية رضيعها على زراعها الأيسر ثم عدّلت من وضع الطرحة على رأسها.. مَسحت خدها في سرعةٍ وبمُنتهى القوة.. تحركت إلى الخارج بخطوات ثابتة واثقة.. بدت بمراحل أكثر حيوية وحرية.

(٢٥)

فى الدنيا الواسعة

بعـد أن قـام بـأداء الأمانـة اليوميـة الثقيلـة المُتمثلـة في تسـليم محتويـات خزينتـه المسئول عنهـا كـكاشير في هايـبر خـرج أحمـد مـن مـكان عملـه في طريقـه إلى منزلـه.. كان يشـتاق إلى سريـره؛ ليُلقـي فوقـه جسـده الضعيـف المُنهـك مـن عَنـاء وقـوف ١٢ سـاعة كاملـة عـلى قدميـه دون انقطـاع.. مـع الوقـت اعتـاد عـلى طـول سـاعات العمـل لكنـه يفشـل دومًـا في الحفـاظ عـلى عينيـه مفتوحتـين بعـد خروجـه مـن بـاب عملـه حتـى وإن تنـاول لِـترات مـن القهـوة.. كان القلـق ينهـش قلبـه عـلى والدتـه.. لذلـك وقبـل أن يعـبُر الطريـق كان أوّل مـا فعلـه هـو أن أخـرج هاتفـه - (الممنـوع اسـتخدامه أثنـاء العمـل) -ليطمئـن عـلى صحتهـا مـن خـلال اتصـال بوالده. فحسـب الاتفـاق كان المُفـترض أن يكونـا قـد انتهيـا مـن زيـارة الطبيـب الرابـع عـلى التـوالي لفحـص حالتهـا.. طلـب الرقـم وجـاءه الصـوت الآلي بـأن الهاتـف مُغلـق.. بـدا القلـق عـلى وجهـه وغمغـم:

- استر يا رب.

حتى يصل إلى مكان ميكروباصات الهرم التي ستقله كان عليه أن يعبُر إلى الجهة المقابلة من الطريق المُقسَّم طوليًا إلى حارتين يتخللهما رصيف في المُنتصف.. بخطوات ناعسة مُثاقلة عبر النصف الأول الشبه فارغ من السيارات والمارة ووقف على الرصيف استعدادًا للعبور إلى النصف الأكثر ازدحامًا.. في المعتاد يتم إيقاف أغلب إشارات المرور عن العمل في الثانية عشر بعد مُنتصف الليل لكن هذا اليوم كان واضحًا أن خللًا ما أصاب إشارة المرور فأضاءت ألوانها الثلاثة مرّة واحدة مما جعل السيارات تسير بفوضوية وبسرعات جنونية غير عابئة بأرواح الناس التي قد تُزهق.. انتظر قليلًا آملًا في هدوء الحركة إلّا أنّ الوضع استمر بنفس السوء.. فكّر قليلًا وتوصّل إلى أنه لو أستمر في مكانه للصباح لن يتغير أي شيء ومن ثم قرر أن يُحاول.. دبَّ النشاط في جسده فجأة ونسى كل تعبه واستجمع تركيزه.. أخرج منديلًا من جيبه ومسح نظارته الطبية ثم ارتداها.. أخذ نفسًا عميقًا ونزل من الرصيف وهمَّ بالعبور لكن مرور سيارة مُسرعةً أمامه ردَّه مُهرولًا في لحظةٍ حيث كان.. سقطت نظارته على الأرض.. ضحك على حاله ولمح بطرف عينيه مَن يضحك عليه أيضًا!.. نظر فرآها بجواره على مسافة ٥ أمتار فحسب.. فتاة لا تزيد عن ١٨ عامًا.. عالقة بالموقف ذاته وأمارات نفس الحيرة التي تنتابه على وجهها.. شبَّك ذراعيه أمام صدره في عِناد.. رآها تُحاول تجربة ما كان يفعله قبل ثوانٍ.. أعادها خوفها مثله فوق الرصيف مرّةً أخرى.. ضحك فنظرت له بغضبٍ فهتف:

- طب إيه طيب.. هنفضل هنا للصبح ولا إيه؟

هزّت كتفيها في حيرة.. شجّعا بعضهما بالنظرات وتحدّثا بها.. بدون كلام اتفقا أن يعبرا سويًا.. نظرت إليه في انتظار إشارته.. قال لها بعينيه (يالّا) هزّت رأسها موافقة.. ينزلان قدميهما في نفس التوقيت بمُحاذاة بعضهما من على الرصيف.. فوووو.. سيارة ثالثة تُعيدهما إلى الرصيف.. أصبحا مُتفاهمين ويفهم كل منهما الآخر وكانت تستوعب كل ما يقوله في صمت.. أعجبتهما اللعبة.. كرّراها.. أكثر من خمس مرّات ومع كل مرّة يتكرر الفشل وترتفع ضحكاتهما أكثر ومع كل مُحاولة يذوب فارق المسافة بينهما تدريجيًا حتى أصبحا شبه مُتلاصقين.. مدَّ أحمد يده.. ترددت الفتاة لكن استمرار ابتسامته مع يده الممدودة دفعاها إلى إمساك يده.. مرّة واحدة وسويًا انطلقا جريًا.. وابل من كلاكسات السيارات المُعترضة وألفاظ سائقيها التي تَلعن هذا الجنان لم توقفهما هذه المرّة.. مع بعضهما كانا أكثر جِنانًا لكنهما كانا أشجع، أقوى وأنجح

- شكرًا.

قالتها في مرحٍ فردَّ عليها:

- شكرًا على إيه بس مَفيش حاجة.. وعيل فكرة أنا بقف أتلخم هنا كل يوم نفس اللخمة في نفس الميعاد فلو حبيتي تعدي بعني أنا موجود.

رفعت يدها وأشارت له بالتحية.. ودَّعها بابتسامة.. سار كل منهما في اتجاه.. بعد أن ابتعدا قليلًا التَفَت وراءه وهتف بصوتٍ

عـالٍ وهـو يرجـع بظهـره:

- هشوفك تاني؟

اِلتفتَتْ وراءها أيضًا وهتفت:

- أكيد.

- فين؟

- في الدنيا الواسعة.

أرسـل لهـا قُبلـة استقبلتها ثـم ردّتهـا إليـه وواصلـت طريقهـا.. ظـلّ يُتابعهـا.. نسـى أن يسـألها عـن اسـمها أو عنوانهـا.. كان يشـق أن هـذا الموقـف لـن يُمحى مـن ذاكرتـه وأنّ الحديـث بينهـا لـو كان استمر لـدقيقةٍ واحـدة أخـرى فقـط كان سيتزوجها.. أمّا هـي فقـد شـعرت بـشيءٍ مُختلـف بعـد أن أصغـت لصـوت أقـوى سـلاح في الوجـود.. قلبهـا.. شـعرت أنهـا أحبتـه.

(٢٦)

ستر وغطا

من الباب الخلفي لذلك المبنى الطبي الضخم في منطقة فيصل بالجيزة الذي تكتظ شققه بعيادات لأشهر الأطباء في مختلف التخصصات خرج العَجوزان.. رجل كَهل تستند عليه سيدة كبيرة في السن يبدو أنها زوجته.. أعمارهما جاوزت السبعين عامًا.. مظاهر التعب والإعياء بادية بشدة على وجه الزَوجة وتقوى قدماها بالكاد على حملها.. يحمل الزوج تحت إبطه عِدة ملفّات طبية وأشعة.. يسيران ببطءٍ يتناسب مع عمريهما ومع حالة الزوجة.. باب المبنى الذي خرجا منه أمامه مباشرة الجانب الأيمن لسُرادِق عَزاء ارتفعت من داخله عبر الميكروفون صوت تِلاوة للقرآن الكريم فأضفت جوًا حزينًا إضافيًا على مشهد خروجهما.. السيدة كانت تبكي بشكل واضح للعيان والرجل انسابت دموعه في صمتٍ على خده رغمًا عنه وحاول أن يُداريها قبل أن يُقرر أن يكسر هذه الحالة فقال لها بصوتٍ خرج مُتحشرجًا رغمًا عنه:

-والله العظيم هتبقى كويسة مَتصدقيش كلام الدكاترة.

ردَّت باكية:

- هموت.

- تلاقيه قال كده عشان قولنالـه مش هنقدر على تمن الفيزيتة بتاعتـه تـاني فقفلها في وشنا ابن الحرام.

- هموت والله أنا قريتها في عينيه.

يقول بانفعال:

- يا بـوي عـلى ميتين أم السيرة دي.. وكتاب الله مَهيحصل مَتوهميش نفسك في عرض النبي.

- كان بيتكلم بجد..

- لا بجد ولا حاجة.. إيه رأيك بقى أنا استريحت للي قبله أكتر منه.

- بس ده دكتور كبير وفاهم.

- ده حمار وبعدين إنتي إيش فهمك في اللي فاهم ومش فاهم.

- ربنا يعلم أنا مش خايفة من الموت وبدعي إنه يطول في عمري بس عشان مش عايزة أسيبك لوحدك إنتَ وأحمد.

- وهو عارف إننا من غيرك ولا نسوى.

توقفت عن السير وتعمَّدت النظر إلى عينيه باستجداء:

- سايقة عليك حبيبك النبي يا عزت مَتسيبني.

- بعد العمر ده كله يا فاطمة!.. دا إحنا مَطلعناش من الدنيا إلّا ببعض أنا وأنتي وحِتة الواد اللي جه على كَبر.

- وعد؟

- تعالي نتفق اتفاق عشان أطمنك.

نظرت إليه مُتسائلة دون أن تنطق فواصل:

- إنتي بعد الشر بعد الشر بعد الشر ألف مرّة الله لا يقّدر لو حصلك حاجة والله هموت وراكي على طول ومش هسيبك برضك.. هروح فين يعني.. خلاص بقى.. خلاص وحياة النبي يا شيخة.

نطقها وهو ينكزها بقبضته بلطف في جانبها وطبطب على كتفها وضمّ رأسها على صدره وقبّله.. كأن طبطبته دبّت الروح فيها مرّة أخرى.. التفتَتْ وقبّلت أصابع كفّه الموضوعة على كتفها فسحبها بسرعة.. قرأ في عينيها اعترافًا بالجميل وحُبًّا مُتدفقًا وأدرك قلبها كل ما يجب أن يُدركه ويحتاجه لكي يستمر في الحياة.

(٢٧)

ركعتين وبصة

حتى بعد تجاوزه الـ ٧٠ عامًا ظلّت العلاقة بين (عزت) وبين ربه كأغلب الناس علاقة مصلحة من طرف واحد.. هُم بالطبع هذا الطرف.. خلال الأزمات ولحظات الفراق تبلغ منهم الروحانية مبلغها.. صلاة في المسجد لأغلب الفروض اليومية.. دعاء لا ينقطع.. شلال من أعمال الخير قدر الاستطاعة.. خلال أزمته الأخيرة وبعدما أكدت التحاليل الخاصة بزوجته أنَّ أيامها في الحياة معدودة.. مسألة شهور فقط.. هو يُدرك أنّه لن يحتمل الحياة بدونها يومًا واحدًا، ويعلم أنها تعلم أنه يكذب عليها ويُجمِّل الصورة.. رغم ذلك اتخذ قراره ألّا يُجبرها وابنهما وقرر أن يتحمل العبء النفسي وحيدًا.. قادته قدماه إلى المسجد وقت صلاة الفجر علّه يجد في ركعتيه مُخففًا ربانيًا.. وجد نفسه آخر شخص في الصف الأخير.. لحظات ولمح بطرف عينيه شاب صغير يأتي من الخلف بخطوات مُترددة.. أفسح له قليلًا نشعر أنه بالمعنى الحرفي (بيقدم رجل ويأخر رجل!). التحق بهم ثم وقف على شماله.. دخل معهم في الصلاة من بداية الركعة الأولى

بعد سورة الفاتحة مُباشرةً.. لاحظ أن حركاته غير طبيعية ولكن زاوية وقوفه المُوازية له لم تكن تسمح باستطلاع المزيد عن هذا الجار المؤقت.. تخبيط مُستمر في الكتف.. سجود وركوع بحركات مُتوترة مايعة وغير مُتوافقة مع الجماعة.. حركة يده ووضعية قدمه مع صوته القادم من أعماق سحيقة في ترديد كلمة (آمين) وكأن صاحبه سكران أو نصف نائم.. تدريجيًا وجد نفسه بسبب تلك الأفعال يفقد تركيزه في الصلاة.. تمنّى وقتها أن تنتهي الصلاة سريعًا ليلتفت إليه ويصب عليه جام غضبه ويُسمعه كلمات من نوعية:

- الصلاة ليها احترامها.. لو مش قد الصلاة صَلي في بيتكم أحسن.

(السلام عليكم ورحمة الله. السلام عليكم ورحمة الله). التفَتَ إليه وألجمه الصمت تمامًا.. وجده صبي عمره لا يزيد عن ١٥ عامًا.. تُصاحبه إعاقة مُزمنة في يده وقدمه.. وأن كل ما كان يظن أنه مياعة ودلع كانت تختفي وراءه قوة وإرادة تُحاول أن تقف على قدمين لتصلي.. احتقر نفسه.. خرج من هذا المسجد وبداخله قناعة تامة حدَّث نفسه بها بصوتٍ عالٍ قائلًا:

- يا حمار إنتَ مش حاجة عشان تحكم على غيرك من برّه ولا من جوّه.. إنتَ مش حاجة عشان تحكم على غيرك أصلًا.. سامحني يا رب واشفيها.. سامحني يا رب واشفيها.

(٢٨)

مزاجانجى

عند أي حالة وفاة كان مبدأهم أن يكونوا في غاية الحِرص على حضور مراسم الدفن والتحاشي قدر الإمكان لأي فرصة للتواجد داخل سُرادِق العَزاء نفسه.. فبالنسبة لأفراد الشِلّة الخمسة كان مجرد الجلوس داخل السُرادِق على صفوف الكراسي المُتقابلة يعني دومًا موجة من الضحك الهستيري بسبب أو بدون.. مشهد يحيى الفخراني في سُرادِق العَزاء بفيلم الكيف كان يُهاجم خلايا مخهم بإلحاح كلما جاءت السيرة أو وضعوا في الموقف.. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا فالمتوفى هو والد صديقهم الأنتيم (شادي) وهو ما يُحتِّم عليهم التواجد في العَزاء من البداية وحتى انصراف آخر المُعزيين فلن تُجدي نفعًا أي محاولة للفرار أو التزويغ.. أمام نداء الواجب تلاشى التردد ووافق الكل على الذهاب وتعهدوا بالصمود والتماسك وعدم الضحك.. إلّا (حسام):

- بلاش أنا يا اخوانا.. اسمعوا كلامي بلاش.

حسام طيب بالفطرة.. اللي في قلبه على لسانه.. ضغطوا عليه.

رفض.. ضغطوا أكثر فوافق.. لكن ظلت الريبة من (حركات حسام) في صدور الجميع تُسيطر على الموقف فلم يكن المطلوب فقط ذهاب حسام بل كان الرهان الأكبر أن يبقى حسام صامتًا لأطول فترة ممكنة.. بعد تفكير جاء الحل على لسان أحدهم:

- بص يا سمسم سيجارة حشيش هتظبُطلك الأداء وهتخليك لا مركز في اللي بيتقال ولا في الناس.. تقعد الشوية اللي هتقعدهم وتكُت.

حسام ليس من مُدمني المُكيفات ولا السجائر.. حتى الشاي والقهوة والكوكاكولا وكافة المُنبهات لم تعرف طريقها له من قبل لكنه وافق.. أو أُجبِر على الموافقة.. وحتى يكتمل الأمر برمته ألقاها في وجوههم جميعًا محُذرًا:

- يا زفت منك له أنا هحاول أمسك نفسي.. بس ياكش حد يصلي.. انتم حُرين بقى.

تجمّعوا وتحركوا سويًّا إلى السُرادِق في منطقة فيصل أمام المبنى الطبي الشهير.. جلسوا وسارت الأمور على ما يُرام.. حسام لا يبدو على طبيعته بشكل أو بآخر لكنه صامت وهذا هو الأهم.. مرّ الوقت ساعة تلو الأخرى ومع كل دقيقة تمر يتنفس الجميع الصعداء.. فرغ الصوان بالتدريج وحان وقت الانصراف.. نظروا إلى بعضهم البعض كما اتفقوا.. وقفوا صفًا واحِدًا لتعزية شادي وتعمَّد الكل أن يكون حسام آخر شخص فيه.. جاء دوره.. أمسك بيد شادي مُدة أطول من المُعتاد وهو يترنح ثم ألقاها أمامه في ثقة:

- اااااااا.. البقاء للأقوى.

(٢٩)

حباية زرقا

بحث القارئ الشيخ (جودة السحرتي) بمُجرد انتهائه من تلاوة القرآن في الجنازة على أقرب صيدلية.. رغم تجاوز الشيخ الستُون عامًا إلّا أنَّ صوته ما زال مُحافظًا على نضارته مما جعله مَقصِدًا دائمًا في المناطق المُحيطة لأي مناسبات دينية.. في مشاوير العمل وغيرها يحرص على ارتداء العمّة البيضاء والقُفطان الأزرق الزي الأزهري المميز لرجال الدين حتى أصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصيته.. لم يدم بحثه طويلًا فوجد صيدلية دلف إليها في سرعة.. رأى شاب وفتاة يتناوبان على تلبية طلبات الزبائن.. وبرغم انتهاء الفتاة وتفرغها بعد لحظات قليلة من دخوله إلّا أنَّ جودة تعمّد الانتظار حتى فرغ الصيدلي الشاب تمامًا فتوجه إليه وقال:

- سلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا مولانا.. اتفضل..

تلفّت حوله في سرعةٍ ثم مال عليه وقال هامسًا بخجل:

- قرص فياجرا.

يذهب الشاب لتلبية طلبه ويعود ممسكًا بالعلبة الزرقاء ويُمررها على جهاز تقييم السعر ويُخبر جودة به.. يدس يده في جيب القُفطان ويُخرج النقود ويُعدها بحرص.. يسأله الصيدلي بشاشة:

- مولانا ممكن سؤال؟

- طبعًا.. اتفضل.

- معلش متآخذنيش يا مولانا.. هي ليك؟

يُقطب جودة جبينه ويرد في ضيق:

- أيوه.. فيه حاجة؟

يميل الشاب عليه ويُجيب هامسًا:

- مَتزعلش منّي أنا زي ابنك.. خلّ بالك لأنها لو ليك وفي سنك ده وبدون استشارة دكتور هيبقى فعلًا حرام عليك نفسك.

يخطف جودة الحبّة الزرقاء من يد الصيدلي ويرد بصوتٍ عالٍ:

- بقولك إيه.. أنا لسه شباب وأعفى منّك.. وفر نصيحتك لنفسك ومَلكش عندي غير تمن الحباية.

يقولها ثم يُلقي أمامه ورقة نقدية بأكثر من الرقم المطلوب ويواصل بنفس النبرة الغاضبة:

- وأكتر من تمنها كمان وخلّي الباقي عشانك.

في طريق عودته إلى المنزل مرّ على أحد محلات الجزارة القريبة منه وابتاع ربع كيلو كبدة.. وصل الشارع وقبل بلوغه مدخل العمارة حانت منه التفاتة ناحية شُرفة شقته فوجد زوجته (عزة) ذات التسعة عشر ربيعًا تُتابع بشغفٍ مجموعة من الأطفال يلعبون في الشارع.. تراه ويتجهم وجهها ثم تدخل.. يصعد وقبل أن يفتح باب الشقة يُخرج حبة الفياجرا ويُقسمها نصفين يبتلع أحدهما ويلقي بالنصف الآخر داخل جيب القُفطان قائلًا بصوتٍ خفيض:

- توكلنا على الله.

يدخل فيلمحها تقف في المطبخ مُمسكةً بطاسة تضعها فوق البوتاجاز.. تلحظ دخوله فتهتف بصوت ضجر دون أن تلتفت إليه:

- هعملك تاكل.

يقترب منها ثم يُناولها اللّفة التي في يدْه قائلًا بودٍ:

- شوّخيلنا حِتة الكبدة دي.

تدفع يده ثم ترد في حَسم:

- لأ.. همّا شوية فول وهحمرلك معاهم بطاطس ونحمد ربنا على كده ده اللي في جهدي أعمله.

يُمسكها من ذراعها ويلفها لتصبح في مواجهته:

- معناه إيه الكلام ده يا عزة.

- أهو ده اللي عندي ولو عاجبك.

ينهرها في حِدة:

- احفظي لسانك وإنتي بتتكلمي معايا يا بت بدل ما أدفنك مكانك.

تُلقي بالطاسة على الأرض وتحاول شق جلبابها صارخة:

- ادفني موتني أقله تريحني من القرف اللي أنا فيه.

يصفعها على وجهها ويهتف في صرامة:

- إنتي بتعلّي صوتك عليّا يا بنت الكلب.

- هو كلب عشان رماني لواحد زيك.

يفتح عيناه في ذهول ويقول:

- بتشمتي أبوكي يا فاجرة!

تواصل صراخها بنفس النبرة:

- أيوه وهفضل أدعي عليه ليل نهار عشان رماني لواحد زيك.. يا أخي حس بقى خلّي عندك دم.. ٣ شهور متجوزين ولسه بنت بنوت زي ما أنا.

تصدمه العبارة السابقة ويبدو على وجهه الارتباك ويتلعثم:

- هو ده اللي يهمك وبس!.. مش شايفة ساكنة فين.. لابسة إيه.. اللي بتعوزيه بيتجاب.. مش ناقصك حاجة!

- ناقصني أبقى أم.

يُدير ضهره إليها ويقول في حسم:

- وأنا متفق معاكي ومع أبوكي من الأول مَفيش عيال.

وضعت يديها حول وسطها وردَّت:

- ما طبعًا.. إنتَ هتعوز تخلف ليه.. ما إنتَ إتجوزت وخلفت وسفرت ابنك يتعلم برّه كمان.. لكن الكابة الخدامة اللي عايشة معاك مَلهاش حق.

يصمت لحظة ثم يلتفت إليها ويربت على كتفها محاولًا الابتسام:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. تعالي نخش جوّه يا بنت الحلال وكله هيتصلح بإذن....

تزيح يده في عنف وتهتف:

- وحياة ديني يا جودة مَهتلمسني ولو شوفت حلمة ودنك.

يرفع أصبعه أمام وجهها مُحذرًا:

- خدي بالك إنتي كده ناشز.

ترد بسُخرية:

- الشويتين دول تعملهم على حد غيري يا مولانا.. إنتَ لا تعرف دين ولا تعرف ربنا.. الدين يا بتاع ربنا مَيقولش تحرمني أشوف الشارع وأزور أهلي.. مَيقولش تتجوزني وإنتَ عارف إنك بتحب غيرك.. مَيقولش تشترى عيّلة مكملتش ٢٠ سنة وإنتَ

معدّي الستين بحبة حلويـن.

يصفعها بقسوةٍ فتصرخ:

- طلقني. خلّي عندك كرامة وطلقني.

- والله ما هيحصل لو وقفتي على إيديكي ورجليكي.

- عشان مش راجل.. مش راجل.

كانت كلماتها بمثابة سهم نفذ إلى قلبه مباشرةً ومزّقه.. ظلّت تُرددها وهي تصرخ فأمسك رأسها وانهال عليها بالصفعات والركلات فبادلته الضرب.. عجز جسده الضئيل على مقاومتها وأزاحته.. فاتسعت عيناه في ذهولٍ وتركها ودخل مُسرعًا إلى غرفة ابنه وأغلق بابها خلفه.. لم يشعر بنفسه إلّا والدموع تملأ عينيه وتنساب منها على وجهه فأطلق لها العنان.. خلع عمامته وألقاها على المكتب في انهيار ثم سحب كرسي وجلس فوقه.. دفن وجهه بين كفيه.. رفع وجهه ومن بين دموعه رأى صورة ابنه الموضوعة على المكتب.. التقطها في مرارة.. أراد لو كان أمامه في هذه اللحظة ليقفز ويحتويه بين أحضانه.. قرّب الصورة من فمه وقبّلها.. كان يشعر لأوّل مرّة بشيءٍ مُختلف لم يُجربه من قبل.. أنه يتيم.. يتيم الابن.

(٣٠)

ابعتلى جواب

مُحتميًا بصحيفة فوق رأسه من الأمطار التي تهطل بغزارة في شارع (Rue Daguerre) يدخل (عصام) مُسرعًا إلى باب السكن الجامعي الذي يسكن فيه في باريس.. بمُجرد دخوله ينفض عن مِعطفه ورأسه قطرات المطر العالقة.. تدريجيًا يسرى الدفء في أوصالِه.. يخلع القُفازات من يده ويفرك كفّيه بسرعة ويوجههما نحو المِدفأة الموضوعة في مُنتصف الردهة مُحاولًا بث بعض الدفء فيهما.. يقترب منه موظف الاستقبال ويهرع لمساعدته بخلع معطفه عنه.. يشكره عصام فيمد له الموظف يده بظرفٍ مُغلق يناوله إيّاه قائلًا وعلى وجهه ابتسامة:

- Essam vous avez reçu un enveloppe d»Egypte, l›enveloppe de chaque moi

تهللت أساريره وأمسك بالظرف بسعادة بالغة و رد على الموظف بسرعة:

- Oh merci, j'espère que je ne gênes pas

كان (عصام) ينتظر خطابات والده الشهرية بفارغ الصبر.. فالعلاقة بينهما من نوع خاص تفوق علاقة الأب بابنه الوحيد.. لم تبعدهما الغُربة يومًا بل لعلها زادتهما قربًا.. فبسبب والده وقراره الأهم ببيع قطعة الأرض الوحيدة التي يمتلكها في المنصورة ما كان ليتواجد حاليًا في عاصمة النور ليدرس ويُكمل تعليمه.. يعمل ثلاث أيام في الأسبوع عامل ديلفري في مطعم بيتزا لكنه يتفرّغ باقي الأيام لدراسة الهندسة في جامعة باريس الخامسة (ديكارت) السبب الأساسي لسفره.. يتذكّر كلمات والده له حينها:

- طُظ في الأرض والفلوس أنا مش عايز حاجة.. إنتَ رصيدي في بنك الدنيا.

يدين له أيضًا من قبلها إصراره على عدم الزواج بعد وفاة زوجته وأم ابنه الوحيد؛ مُراعاة لشعور الأخير وكي لا ينشأ في جو تشوبه أي لمحة عُنصرية من امرأة غريبة، فقالها حاسمة لكل من رشح له عروسة جديدة:

- أنا مش هجيب لابني مرات أب.. هربيه لوحدي وربنا يعين ويقدّر.

حتى عندما أصرّ والده بعدها الشيخ الأزهري على الزواج من فتاة تصغره بأكثر من ٥٠ عامًا كاملة ورغم اعتراض أغلب أفراد العائلة لم يُمانع عصام مع تحفُّظه على فارق السن الكبير إلّا أنه كان يرى أن هذا أقل حق لوالده.. فردَّ الأخير عليه في أحد خطاباته السابقة:

- أمك عمرها مَهتعوض يا عصام.. مَفيش أم بتتعوض.. بس أنا هحتاج حد يراعيني وإنتَ سافرت تشوف مُستقبلك.. أكيد فاهمني.

والده يكره المُحادثات الهاتفية بشدة خاصةً مع كلفتها الباهضة للدولية منها فكانت الخِطابات هي الحل الأمثل للتواصل مع ابنه من خلالها وكأنه أمامه.. تارةً يُحدثه عن مشاكله مع زوجته أو مع الجيران أو حتى طرائف عمله.. قطع درجات السلم قفزًا ولحظات وكان في غرفته بالطابق الثاني.. فضّ الخِطاب.. ودون أن يُغيّر ملابسه إلتهم سطوره بعينيه في نهم وتبدّلت ملامح وجهه تدريجيًا مع وصوله إلى نهاية السطور تقريبًا:

(الناس كان عندهم حق يا عصام.. أنا عشت سن مش سني وهي برضك شابة ومعذورة ليها طلباتها وأنا كنت عايز حد يأخد بحسي بدل الوِحدة ربنا ما يكتبها على حد وأرجع وأقول أنا معايا عُذري إني مَعملتش حاجة تغضب ربنا واتجوزت على سُنة الله ورسوله.. مش عيب نغلط لكن عيب نكابر في الغلط.. أنا هطلق بكرة بعد العشاء إن شاء الله يعني عقبال ما الجواب يوصلك هتكون كل حاجة خِلصت.. حقك عليّا يا ابنى إني بشيّلك همي وإنتَ في الغُربة بس أبوك ضهره انحنى وضعف ومحتاجك جنبه حتى لو بسماعك كلمتين فارغين هيهلفط بيهم معاك على الورق.. اتغطى كويس وإنتَ نايم وبص يمين وشمال وإنتَ بتعدي السكة وخلّي بالك من روحك.. بدعيلك وإدعيلي.. الواد أمين ابن عمك شاكر هو

اللي بيكتب الجواب ويهديك سلامه.. السلام خِتام لا إله إلّا الله)

انتهى من القراءة وطوى الخطاب ثم ألقى بجسده فوق السرير مُطلقًا زفرة حارة وهو يقول:

- يا وجع قلبي عليك.. وبعدهالك يا شيخ جودة.

يرن هاتفه رنة قصيرة مُعلنًا استقباله لرسالة على الـ whatsapp.. تذكّر أنه كان قد بدأ مُحادثة كتابية مع صديقه الوحيد ياسر واضطر لإغلاق المُحادثة عقب نزوله من الأتوبيس وهروبه تحت سيل المطر على أن يُعاود الحديث معه بعد وصوله إلى السكن لكنه نسي.. التفَتَ والْتَقَطَ الهاتف من جواره وقرأ المكتوب بسرعة:

- وصلت ولا لسّه؟

كتب يرد عليه:

- معلش يا ياسور اتأخرت شوية.. حصل حوار كده.. كنا بنقول إيه؟

- طيب عشان مَطولش عليك.. أنا خلاص قررت.. هروح أتقدم لها بكرة.

- مُصمم؟

- جدًا.

ضغط على الشاشة بعصبية وهو يكتب:

- الأمور مش بتمشي كده يا ياسر.. اللي عايز تعمله ده جنان.. خد وقتك إنتَ مش مستعجل.

- الفرصة مش هتستناني ويعدين هو إيه في الدنيا مَبتداش بجنان!

يكتب بنفاذ صبر:

- اللي عايز تعمله اِعمله يا ياسر.

- عصام إنتَ شايف إني ناقصني حاجة؟

يتردد عصام في كتابة الرد.. يكتب ثم يمسح ما كتب عدّة مرّات.. فيُرسل ياسر:

-!!!!.

يحسم عصام أمره ويكتب ثم يُرسل:

- يا ابني إنتَ إنسان مش عادي.

- بس طلبي عادي!

- قولتلك إنتَ حُر.

- إنتَ مالك بتتكلم معايا كده ليه!.. إيه الطريقة دي يا عصام؟

- معلش يا صاحبي مقريف شوية.. أنا آسف لازم أقفل دلوقتي.

كتبها ثم أرسلها وألقى بالهاتف فوق السرير دون انتظار

الرد.. توجّه نحو النافذة يُراقب الجو بالخارج وقد اشتد هطول الأمطار وحركة الرياح التي لاحظ أن الأشجار بسببها كانت تنحني وتتراقص فوق فروعها على جانبي الطريق.. كأنه يُريد من خلال مُتابعته للصورة بالخارج أن يتخلّص من عِبءٍ ما من على صدره.. لحظة ولفتوا نظره.. تِسعة أشخاص.. ٥ رجال و٤ سيدات.. كلهم تخطّوا الخمسين عامًا.. يسيرون في مُتصف الشارع غير عابئين بهذا الطقس القاسي يرقصون ويُغنون ويعزفون!.. كانوا يفعلون هذا بشكل تقليدي ومدهش.. فتح الشباك فاندفع الهواء حاملًا رائحة المطر إلى أنفه وإذا برجفةٍ باردة تسري في جسده.. تسلل إلى أُذنيه صوت المزيكا التي يعزفونها بانسيابية وأصوات ضحكاتهم أثناء الرقص.. كانوا مُبهجين.. طرأ أمرٌ ما في رأسه.. تردد.. حسم تردده والْتَقَط هاتفه وألقاه في جيب سترته الجلدية وارتداها في سرعةٍ وهبط في طريقه إلى الالتحاق بهم.. مرّ على موظف الاستقبال الذي صُعِق لرؤيته يستعِد للخروج فقال له مُندهشًا مُحاولًا تحذيره من قسوة الطقس بالخارج:

- OÙ allez-vous ? La pluie est très forte, vous allez tomber malade

رد عليه وهو يواصل العدو للخارج غير عابئ وصائحًا بابتسامة:

- Oh non pas de problème, j'aime la pluie

...

بدون مُقدمات وجد نفسه ينضم إليهم في الدائرة الراقصة ويُحرّك قدميه ويديه بنفس حركاتهم.. اندمج وسطهم.. غطت مياه المطر وجوههم وملابسهم لكنهم لم يبالوا.. ذاب معهم في الموسيقى وبين حروف الكلمات التي لم يُدرك بعضها.. سيطرت عليه الحالة.. أُصيب بالرشح وبدأ شفتاه ترتعشان وعيناه كانت شديدتي الجفاف إلّا أنه واصل الرقص والغناء غير عابئ بما سواهما.. توقف لحظة وأخرج هاتفه من جيب سترته الجلدية.. طلب رقمًا ما وجاءه صوت ياسر صديقه مُندهشًا على الطرف الآخر:

- عصام!.. خير إنتَ كويس!

صاح عصام بصوتٍ عالٍ:

- روح وقولهالها في وشها يا ياسر.. لو تقدر النهارده كمان يبقى يا ريت مَتستناش لبكرة.. اِنسى كلامي.. إحنا بنعيش مرّة واحدة بس.. إنتَ صح يا صاحبي.. إنتَ صح.

دون أن ينتظر ردّه يُغلق الهاتف ويُعيده إلى مكانه ويواصل الرقص والغناء بمنتهى الاندماج والحب.. قفز إلى ذهنه حينها المَثل الفرنسي (نأتي إلى الدنيا أطفالًا ونُغادرها كذلك أيضًا) ووجده تجسيدًا حيًا لحياته ووالده.


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm



شيكولاتة بيضاء
بدأ الأمر بمعلومة عرفتها من صديق يعمل "شيف" في أحد الفنادق الشهيرة:
- عارف.. الدنيا دي عاملة زي الشيكولاتة البيضا.
- اشمعنى!!
- لأنها هي النوع الوحيد من الشيكولاتة اللي داخل في تكوينه الملح مع السكر، شكلها يبان من بره حلو، ما هي شيكولاتة بقى!.. لكن لما تدوقها بتلاقي جواها لسعة مرار مايا خدش باله منها إلا الخبير، زيها زي الدنيا بالظبط فيها الحلو والمر، وزي الناس برضه.. كل الناس بتتولد قلوبهم بيضا، لكن مع الوقت حياتهم بتبقى شيكولاتة بيضاء.
تامر عبده أمين
كاتب صحفي حر ومراسل لصحف أجنبية في مصر، من مواليد محافظة أسوان، حاصل على ليسانس آداب قسم اللغة العربية.. نال عدة جوائز أدبية من أمريكا وفرنسا في القصة القصيرة، وتعتبر (شيكولاتة بيضاء) أول تجربة قصصية منشورة له في مصر..
المصري